الجيلالي عشي

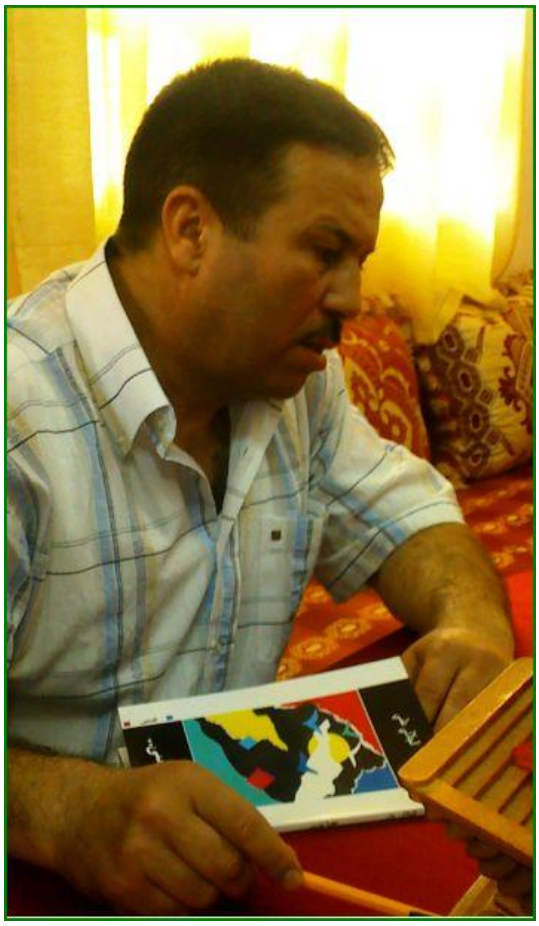

عصا موسى

قصص

عصا موسى

الجيلالي عشي

الطبعة الأولى 2009

شركة مطابع الأنوار المغاربية وجدة

رقم الإيداع القانوني: 2009/0508

الفقيه الجديد

كنــا مصـطفين و بـين أيـدينا ألواحنـا كالـدروع، واقفين علـى حصـر دبغتهـا السنــون و كثرة القعود فأمست كظهر حمار مدبور.

كنـا صـفين مرصوصـين متقـابلين يتقدمنا قيـم الجـامع المسن. لقد كنـا أشبه بجنود قلقين تنتظرهم مهمـة خطيرة. عيوننـا متجهـة صـوب الطريـق المغبرة التي تكاد تكون بلا نهاية في هذه الأرض الجرداء المترامية الأطراف.

عند الفجر أيقظني أبي و قال: اليوم سيحـل سيدكم الجديد.

أخذت لوحتي و قطعة صلصال و قلما ثقفته بكل مـا أملك من مهـارة فصـار كالرمح المسنون. و اتجهت نحو الجامع و النوم يغالب جفنيّ.

أحسست بهبات النسيم البارد تتسرب من بين ثقوب جلبابي و تقضي على ما تبقى في جسدي من كسل و نعاس. و فـي غبش الصـباح رأيت رفـاقي كقطيـع أشباح ينحدرون نحو المسجد.

عند وصولنا شرع أربعة غلمان غـلاظ شداد يمدون الحصـر، التـي توارثهـا الطلبة جيلا بعد جيل ، على مساحة الفناء الخارجي للجامع.

كانـت الحصـر بلـون الأرض الرماديـة المتشـققة، حتـى أنـي صـرت أرى الأرض كلها مغطاة بالحصـر، فكنـت أحـك عينـي لأتأكد ممـا رأيت، فـلا أرى سوى التراب كأنه الرماد.

حشـرت بـين الطلبـة فـي أحـد الصـفين، فصـفعتني رائحـة البـول مـن جانـب و لمـا أدرت وجهـي إلـى الجانـب الآخـر لفحتنـي رائحـة الـروث و الضـروع. همست لمن يقف على شمالي:

- اجعل لأحلامك الشاردة راعيا.

و همست في أذن من يقف على يميني:

- أما زلت تنام في الزريبة؟

نظر قيم الجامع إلى الصفين نظرة القائد وسط ساحة الحرب. و سارع بحزم و صرامة إلى تقويم القامات المعوجة، و خفض الرؤوس الشامخة، و تسوية الصدور الناتئة.

بت أقرأ في وجوه رفاقي علامات الحيرة و الاستغراب، لأننا لم نألف مثل هذا الاستقبال لأسيادنا السابقين. اغتنمت اقتراب أحد الغلمان الشداد فسألته:

- لماذا كل هذه الفوضى؟

تفحصني مليا. و لما فطن إلى ما يحمله سؤالي من حيرة، أجابني بكل يقين:

- إن سيدنا الجديد من الزاوية.

تظاهرت بالفهم، بينما ارتسمت في ذهني علامة استفهام كبيرة عن معنى الزاوية. فكل أسيادنا السابقين كانوا يحفظون القرآن و يلتهمون الطعام، و لا يختلفون إلاّ من حيث أسلوبهم في استعمال العصا و اختيار أنواعها. فهل معنى الزاوية أسلوب جديد في استعمال العصا؟

و أخيرا وصل سيدنا الجديد على بغلته الشهباء بعد أن أعيانا الوقوف. توقف في مواجهة الصفين ثم جال ببصره بين الوجوه، و كاد أن يسمع لدقات القلوب رنين في صدور الطلبة. عندئذ انفلت ضراط من البغلة قبل أن يتبعه انفلات قدر مهم من الروث. فسارع أحد الغلمان الغلاظ إلى جمعه بيده و هو يوشك أن يعثر بجلبابه، و وضعه بعيدا عند شجرة صبار مجوفة.

ترجل سيدنا عن ظهر بغلته بوقار مدروس. انحنى قيم الجامع لتقبيل يديه، فمدها له بلامبالاة متكلفة و نظره مسدد إلينا.

لا تختلف هيئته كثيرا عن هيئة الأسياد السابقين. قامة قصيرة. بطن منتفخ. وجنتان تفشيان عن كثرة الحضور للولائم و الدعوات. بيد أنه يمتاز بلحيته الخفيفة التي تنم عن العناية البالغة التي يوليها لها. و قد جعلني هذا أغير ما رسخ في ذهني من اقتران صورة الأسياد بكثافة اللحى و طولها.

أخذ سيدنا الجديد يمد يده ذات اليمين و ذات الشمال ليقبلها الطلبة بخوف يمازجه الإجلال. و بدا أن سيدنا يستمتع بالتقبيل، فصار يتفنن في تقليب يده لمزيد من الاستمتاع و التلذذ.

و بالرغم من تسارع دقات قلبي، و إحساسي بالمرارة في حلقي توشك أن تصيبني بالغثيان، كدت أن أضحك لمرأى غلام فارع الطول و هو ينحني كشجرة صفصاف قصمتها ريح عاتية، ليمرغ شفتيه في كف الفقيه.

شعرت بجسمي الضئيل ينكمش و يزداد ضآلة و صغارا. انسحبت خلسة من الصف ثم وقفت خلف بقايا حائط منهار أتابع مشهد التقبيل. لقد سبق لي أن قبلت يد أحد الأسياد السابقين، فاصّاعدت من ذلك التقبيل معدتي بسبب رائحة حامضة مقرفة اخترقت أنفي كالسهم المسموم. سأعرف عندما أكتشف بلوغي جنس تلك الرائحة.

دخلت مع الداخلين و بي خوف و هيبة من أن يفتضح أمري. و فجأة أحسست بيد خشنة تمسك بكتفي بشدة. سألني قيم المسجد بصوت يمتلئ بالوعيد: أين اختفيت؟

أجبته متلعثما: كانت بي حاجة قضيتها.

- ألم تجد حاجتك وقتا غير هذا؟

جلست مع الجالسين على الحصير البارد محتميا بلوحتي. جلس سيدنا على المصطبة العليا متربعا على فروة خروف ناصعة البياض كثيفة الصوف. و دونه جلس الفتيان الأربعة الشداد الغلاظ.

تلا الفقيه بعض الآيات فإذا هي مليئة باللحن و التحريف. ارتبت أولا في ما حفظته من الذكر. و لكني لما استرجعت ما اختزنته و رددته طوال سنين، و استظهرته سرا تأكدت مما لاحظت حد اليقين. نظرت يمينا ثم نظرت شمالا فإذا الرفاق مسمرون في أماكنهم كالأوتاد و أبصارهم شاخصة إلى الفقيه الذي أتانا من الزاوية. استبد بي القلق و هاجت نفسي لقول الحق، فهذه آيات تمسخ في فم الفقيه. انتظرت لحظة أن يتجرأ غيري ممن هم أقدم و أحفظ مني على تصويب هذه الزلات، و لكني لم أتلق سوى صمت أعمق من الموت.

تأبطت لوحتي و وقفت مستقيما كالعمود مصححا ما سمعت من لحن و تحريف، فلم أكد أتم قولي حتى شعرت بنفسي مطروحا على الأرض خارج المسجد.

اندهش أبي لما رآني واقفا جنبه في الحقل. رويت له ما جرى. تأملني لحظة ثم ابتسم ابتسامة عريضة. و قال لي: ها هو ذا المحراث بجنبك اعتبره قلمك. و ها هي ذي الأرض أمامك اعتبرها لوحتك، فخط عليها ما تشاء مما ينفع الناس و ينفعك.

بركان. الخميس 24 يناير 2002

غيـــــاب

ليس فيه شيء يميزه عن الناس. عن أغلبية الناس. لباسه ليس فيه ما يثير الأنظار. وجهه لا يختلف. كان عاديا. عاديا جدا.

يسير بخطوات وئيدة. و يبدو أنه لا يرى سوى قدميه. و قد يرى غير ذلك. كما يبدو أنه لا يفكر إلا في الدروس التي سيلقيها هذا الصباح. و ربما هو يفكر في أشياء أخرى غير الدرس. يلقي بتحية غير مبالية هنا – قد تكون تلك عادته – و يتعجب لحظة هناك و هو يلاحظ أن حذاءه يبتسم ابتسامة خفيفة. يبدو و هو يسير بتؤدة أنه لا يرى سوى قدميه و ربما هو يفكر في أشياء أخرى غير الدرس و الحذاء.

في موضع ما من رأسه ينشق ثقب صغير لا يفتأ يكبر و يكبر. بدأت ذاكرته تسيل قطرة قطرة. تظهر عين و يبرز فم. و يتشكل وجه وسط القطرات. ملامح ضبابية و عينان كئيبتان. وجه التي تراقبه من خلف الحائط كل صباح. من فضول تلاميذه المكثف يختلس نظرة إليها متظاهرا بحثهم على قراءتهم الصامتة. ثم يقترب من الحائط الذي يفصله عنها. و تبكي ... و يواسيها فتبتسم و يقول كلاما، و إذ هي تهم بالكلام يأتي ممرض فيصرفها عن الجدار.

يتقلص وجه الساعة و يسدد نابيه الحادتين. و يتساءل: من الساعة الآن؟ هذه الآلة الصغيرة أم أنا؟ قد تكون آلة و قد تكون هو و قد تكون غير ذلك. و يحس بمحفظته تحت إبطه تحثه على السير. فإيقاع الخطوات الذي كان يمشي عليه قد يؤخره عن الوقت المحدد للعمل، و قد يعرضه للعقوبة. لهذا

فهو يسير بسرعة و بحزم كذلك. أليس هو الآن موظفا حتى لا يسير بسرعة و حزم؟ و بالرغم من كونه في آخر درجة من سلم مهترئ، أليس هو الآن موظفا؟ و يسير بسرعة حتى لا يتعرض للعقوبة، أليس هو الآن موظفا حتى لا يتعرض للعقوبة؟

... تضحك بتلذذ. تقول: أتعرف أن أبي ثعبان. هكذا ألوي عنقه. هكذا أدق ذيله. هكذا... هكذا. و هي تمسك بيديها قصبا و تكسره. ثعبان... ثعبان... فيه قيح بدل الدم أدقه هكذا. ها. ها.ها. و إذ هو يهم بالكلام يلاحظ شبح نظارتين من بعيد.

يمسح العرق عن جبينه بمنديل بلله الزكام. يحيي حارس المدرسة لاهثا. خرقه الداخلية تتشبث بجسده بطريقة مشبوهة. و حذاؤه الذي كان يبتسم صارت ابتسامته أنينا تحت قدميه. و أصبح يشقى في إخفاء جوارب متسخة و ممزقة. فكر في تعويضات عن ترقيع الأحذية و إعادة ترقيعها. فهو يسكن بعيدا عن مقر عمله مما يجعل أحذيته تهترئ في وقت قصير. ابتسم. تعويضات! ثم حرر أنفه من مخاط تراكم فيه.

تصله شكواها من خلف الجدار: أحس كأن ذبابا يملأني. يمصمص شفاهه و يطن بأنفاس لاهثة. هل أنا نتنة إلى هذا الحد يا ج.؟

يمد يده ليهش عنها قطيع الذباب.

- لقد كثر الذباب في هذه الأيام، لكني متيقن أنه سيأتي قريبا من يبيده عن آخره. يقول لها ج.
- أنت أيضا جرتك حملة الإشهار.
- أنا لا أخدم أي نوع من الإشهار الرخيص، بل أنا مستعد لأن أتحول إلى ذرة من ذرات المادة التي ستبيد هذه الكائنات الكريهة.

يــدق الجرس برتابة. يفر إلى قسمــه و كأن رنين الجرس المزعج يطارده. يتأمل وجهها الدائري و شعرها الذي مزق أعنته و انطلق شاردا على كتفيها. أسنانها التي تزينها آثار التبغ و الزغب الجذلان الذي يعلو شفتيها. و يفهم أنه لا يتأملها فحسب بل يغرق فيها. تحكي له و نظراتها تنزلق عليه كماء بارد في إحدى ليالي دجنبر:" شققت بطنه بسكين المطبخ. بطنه المنتفخة - و تقلد ذلك الانتفاخ بنفخ فمها - أخرجت أمعاءه و شنقته بها. كم كان يثير الضحك و هو يلف عنقه بأمعائه كأنما ليتقي البرد. كم كان يبدو مضحكا!" تحط يد بيضاء معروقة على كتفها، فتنسحب و عيناها مشدودتان إلى عينيه.

يقف أمام خمسين شحوبا. أمام زهور ذابلة تطفو على سطح بركة خشبية آسنة. تحملق فيه مادة سوداء معدومة الملامح. تحملق فيه بإلحاح. و يصرخ فيهم : هذه باب.. هذا كلب.. هذا شرطي.. الدابة السوداء تتقيأ سائلا ابيض تغمره لزوجته. يخرج رأسه و هو يكاد يختنق ثم يصرخ في حشرجة: هذا شرطي.. هذا كلب .. هذه باب. أمام خمسين شحوبا يقف ينطح جذعا أسود.

و تسلل من مناخير ذاكرته رائحة الأفيون و البن و النعناع. كان يحتسي قهوته و يتأمل الزمن الذي استكان في فنجان القهوة. يقترب منه وجه سديمي. شيء ناتئ في وسطه يشبه الأنف و ثقبان في أعلاه لعلهما العينان. و أسفله انفغر شق يشبه ذكرى باهتة لفم أثري. يجلس بقربه. السلام... مرحبا... و عليكم ... أهلا ... بخير... كيف ...

مديرنا الجديد ظريف.

اشرب قهوة.

له دراية كبيرة بأمور الإدارة.

القهوة حرمت في وقت ما ثم حللت بعدئذ. أما أنا فأفضل شربها محرمة.

لقد قال لي بأني أتقن عملي و أني أستحق...

بصقــة... القهوة بصقة.

المدير... القهوة... المدير... القهوة.... القهوة... القهوة..

خبرني بالله عليك، هل صحيح أن الفتاة المجنونة كانت تدرس بالجامعة؟ يقال إنها كانت جنية في الدراسة. المدير كذلك يعرف قصتها و الحق أنه لا تخفى عنه خافية.

كانت في كلية العلوم.

لكن... ألا تخاف أن تجد نفسك ذات يوم غارقا في دمائك؟

قام منتصبا كأنما وخزته سكين حادة. و بصق. بدت له فقاعات البصقة المنتشرة وجوها قبيحة. لا لست ثعبانا – قال في نفسه – لم أغتصب أحدا فكيف أجد أمعائي ذات صبح تعوم في دمائي. أعرف أن هذا زمن حشري لكني لست حشرة. حتى لو كنت حشرة فلابد أن أكون من النحل و الفراشات لا من الذباب والبعوض.

قالت من وراء الحائط: كان زجاجة كحول منتفخة تدب في اتجاهي. امتدت يده المرتجفة مثل دود الأرض نحو صدري. و في لحظة أمسكت الزجاجة ثم كسرتها على أحد الرفوف الصلبة.

لقد حان وقت الاستراحة يا أولاد. يستوقفه خالد النجيب و يسأله:

- لماذا هم هكذا؟
- من تقصد يا خالد؟
- الذين يسكنون خلف الحائط؟
- إنهم مثلنا. ألا ترى أنهم من لحم و دم، يضحكون و يبكون مثلنا؟

- و لماذا هم هناك؟
- لأنهم يحلمون أكثر منا.
- و لماذا وجوههم مثل الضباب؟
- لأن الحلم يا خالد جهد.
- و تلك المرأة التي تطل علينا دائما؟ إني أشعر بالخوف حين أراها.
- لا داعي للخوف منها يا خالد، أنها تحبك و تحب جميع الأطفال أمثالك. و هي تود كثيرا لو تهدي لكم حلوى و زهورا و كتبا.

في تلك الليلة و قد احتضن الظلام كل الرعب و البرد و الوحدة. في تلك الليلة غافل الحارس. يعرفه جيدا كسولا و يقظا في الوقت نفسه. فهو عندما ينام لا يوقظه حتى زلزال و قد يوقظه صوت إبرة. و كثيرا ما يتحدث عن أحلامه الجميلة و كذلك عن لياليه البيضاء.

تلك الليلة بدا لهما الحائط قزما مهترئا. تخطته بقفزة واحدة. و التحما. كان هدوءا عميقا. و كانت قبلة عميقة امتصت كل يأس العالم. أدركا معا أن سر العالم في قبلة عميقة حين يدمدم الشوق في الشوق، و يصب الوريد في الوريد. في تلك الليلة قال لها إنه دون لهيبها يضمر كالنبتة و إنه دون دفئها يموت.

من يذكرنا بالدرس السابق يا أولاد؟ في هذه اللحظة يطرق الباب و يدخل الحارس. يلقي عليه ج. نظرة مستفسرة. يجيب الحارس: المدير يستدعيك حالا.

نظارتان صفيقتان تحاولان عبثا إخفاء جفنين لا غور لهما. و يد معروقة ترتجف متلذذة بمداعبة قلم أحمر. ذلك هو السيد المدير.

- أنت رجل تربية يا ج.
- (لنفسه) و رجل زلط.
- و المفروض أن تكون أنموذجا.
- (لنفسه) في الزلط اليومي.
- إلا أنك خرقت كل القوانين الداخلية.
- (لنفسه) و سأخرق حتى بطنك الشبيهة بقبة الحمام العمومي.
- و قد نبهتني إدارة المستشفى المجاور لمدرستنا إلى تصرفك غير اللائق.
- (لنفسه) و من يفوقك يا سيادة المدير في لياقة البيع و الشراء.
- و لهذا فإني أنبهك إلى مغبة هذا السلوك.
- (لنفسه دائما) يسعدني كثرا أن ابصق على كل تقاريرك السرية منها و المعلنة.
- و إنك تعرف جزاء كل إهمال في العمل.
- هل انتهى الكلام؟

و انصرف إلى قسمه. لاحظ أن تلاميذه، رغم شحوبهم، يرشقونه بنظرات فيها إشعاع غريب و على وجوههم ارتسمت ابتسامات تحمل كثيرا من العطف. من يذكرنا بالدرس السابق يا أولاد؟

ترتعد الباب بالدق. و تمتد يدان ضفدعيتان لتأخذا جسد ج. يتبادل التلاميذ نظرات حيرى لفهم ما يجري. و يقول خالد النجيب:

أخــذوه لأنه أحــب المرأة المجنونة.

الكلاب و الطريق الأسفلتي الطويل

الأرض مليئة بالمستنقعات و الوحل. يستحوذ عليها لون أخضر متعفن، لون الطحالب القديمة. و أنا أجري و ألهث. و أخي الأصغر كان يجري. قطيع من الكلاب يجـري و يلهث خلفنا. أغطس في المستنقع حتى أذني. أبتلع قطعة من الطين ذات نكهة طحلبية. أشعر بشيء يتفرقع في فمي. إنه ضفدع. يقفز من فمي و يغطس في الوحل. أبصق بصقة بحجم المستنقع. أتخلص من الأوحال بصعوبة تكاد تخنقني و أستأنف هروبي. يـــا أخي اجر. الكلاب وراءك ستنهش لحمك دون رحمة. اجـر. غصة في حلقي. أسرع يا أخي. جدار صغير يستوقفني فأثب فوقه. يصل أخي. أمد له يدي. الجدار يعلـو و يتسامق. و الكلاب تلهث. و أخي يستغيث و يبكي. أمـد له يدي فلا أمسك غير الفراغ. و الكلاب تعوي كالذئاب. يشخص بصره نحوي ثم يرفع يده يائسا فأجذبها و لكنها، يا للهول، تقتلع من كتفه. يتفجر نبع من الدم. يسقط على الأرض و هو يتضرج في دمائـــه و يتخبط كخروف العيد. الكلاب قريبة منه. كفي ما تزال ممسكة بيد أخي المبتورة. الدم أخضر بلون الطحالب. بلون الماء العكر. بلون الضفادع الوحلة. أبلغ الطريق الإسفلتي الطويل. كنقطة سوداء صغيرة لا تفتأ تكبر و تضخم أرى سيارة قادمة نحوي. ألوح لها بيدي فتقف. إنها سيارة مدرعة مصبوغة بلون الطحالب القديمة. فأجري بكل ما أعطيت من قوة. ألتفت إلى الوراء. الكلاب تجري و تلهث. تهب ريح عنيفة فتمنعني من التقدم و تشدني نحو الخلف، في اتجاه الكلاب. أقاوم. أبذل كل ما تبقى لي من جهد لاختراق الريح العاصفة دون جدوى. أراوح في مكاني منهكا. أحاول السير فأجد رجلي مشلولتين مثل وتدين، بل أحس كأنهما لشخص آخر.

الكلاب تقترب مني. أفتح فمي لأصرخ، غير أنها تتوقف مكشرة عن أنيابها. أشعر لحظة أنها غافلة عني. لم تعد تفزعني. يبدو أنها منشغلة بنهش جثة لا تظهر لي ملامحها. أدنو منها ثم أنظر. ماذا أرى؟ جثة أخي بين أنياب الكلاب و زمجرتها. إنه يحدق في بعينين كالجمرتين. يستل يده من خلال الكتلة السوداء و يشير إلي بسبابته. تخوض الكلاب معركة شرسة فيما بينها. و لما تهدأ تلتفت نحوي. تزأر زئيرا مرعبا ثم تهجم علي دفعة واحدة. أهرب بكل ما أمتلكه من الرعب. أتعثر بشيء صلب يشبه جثة أخي الأصغر فأسقط في الوحل. أغوص فيه شيئا فشيئا. تغزو الطحالب فمي و أنفي و رأسي. تسكن الضفادع جوفي. و في حلقي تنغل حشرات صغيرة كثيفة. فأحاول أن أصرخ و لا أصرخ.

بائعة الهوا

تنظر ببلاهة إلى خيوط الدخان و هي تتصاعد من أفواه الزبائن المنهكين. ضوضاء الحان يرسم في ذهنها أطيافا هلامية. وحدها تشكو الزمن. و أخيلة من الماضي تنسج في ذاكرتها سحبا دكناء. ضحكات ماجنة، و كلام يطلع من أغوار سحيقة يساقط في أذنها كالموجات الميتة.

حين حلت ببلدة السعيدية كان السراب يمشي أمامها بافتخار. و آهات تجر وراءها خيبات الأمل. أبوها مات و من خلفه تواتر سرب من الإخفاقات. تقول في نفسها: ليت الليلة غير الليالي السابقة.

قبل أن تغادر المنزل الذي تشارك في اكترائه خمس أخريات، ألقت بوجهها في المرآة فانتثرت دموع بلورية فوق الزجاج.

حين جاءت كان السراب.

و اليوم يفك البحر أزراره و ينفث أمواجه المتلاشية. يهمس لها بكلمات رقاق و يناجيها كالعاشق علها تبتسم و لكنها تظل غائمة. باح لها بكل أسراره و لكنها ما تزال تنظر ببلاهة إلى توافد الزبائن المرهقين. تتقارب الكراسي و تزدحم الأنفاس و تضيع النظرات في مسارات لامتناهية. هذا يشكو عسف رئيسه، و ذاك يبكي خيانة زوجته، و هذا ينتقم لضعف رجولته و ذاك يحارب الملل الذي يكاد يقتله.

و الطائر الحالم أبدا بالسفر و الهجرة يصب في جوفه ماء النسيان.يحملق في شفتيها بألوانها الزاهية، و يتطاول بنظراته إلى نهديها النافرين. و حين ينزل بنظره السافر نحو الأسفل تتسمر عيناه عند رجلها المشلولة.

كيف تستطيع هذه الحمقـاء بهذه الرجل الكسيحة أن تنافس أرداف زميلاتها التي تكاد تفيض من ضيق سراويل الدجين و الحرير.

تحتسي بيرتها بضرب من الضجر. و تتأمل التواء قدمها فتسب الطبيعة التي لم تنصفها، غير أنها سرعان ما تتراجع عن سخطها عندما تتحسس صدرها الضخم النافر.

حين قدمت إلى هذه البلدة كانت واثقة من وجهها المرسوم بعناية، و صدرها المتقدم بفخامة، و شعرها الفاحم المسترسل. كانت تنسى رجلها المشلولة في سحب الدخان و أرواح الشعير و الكروم. كما كانت تدرك بفطرتها الأنثوية أن الخمرة حين تلعب بالرؤوس تختلط مقاييس الجمال، و تذوب الفوارق بين الصدور الخانعة و الصدور الثائرة، بين الأرداف الممسوحة و الأرداف المكتنزة. و يتساوى القبح و الجمال و الموسيقى و الضوضاء و تتكافأ الفطنة و البلاهة. حينئذ يضحك الطائر الحالم بالهجرة و هو يصب مزيدا من ماء النسيان في دماغه.

هذا الرجل بالتأكيد كان يتأمل شللها و صدرها، و ينصت إلى همس البحر في أذنها، و ينبش في دفتر ذكرياتها. لكن من قال إن البحر يكلمها؟ من قال إن السراب يتقدمها؟ من قال إن الإخفاق يمشي خلفها؟ من قال إن الفطنة تختبئ وراء بلاهة نظراتها؟

هل هي البيرة التي يرتشفها و هو يتحسس النقود في جيبه؟ هل هو نداء البحر الأبدي نحو الهجرة والسفر؟ هل هي خيالات الوحدة و أشباحها؟

تقدم نحوها بخطوات واثقة حلت وثاقها أطياف البيرة. تذكر قيود الخجل التي طالما كبلت حركاته و ألفاظه و أفكاره كلما خاطب امرأة كاملة الأنوثة. ابتسم و هو يتخيل كل الرجال الخجولين و المعقدين يتأتئون و يمشون متخشبين

معوجين مترددين. و تخيلهم و هم يجامعون نساءهم كجنود مصفحين بالحديد، يجردون سيوفهم المرتخية من أغمادها المتآكلة. توقف حين انبثقت من تأملاته فكرة أن أكثر الناس قابلية للإدمان على البيرة هم الخجولون. ازدادت ابتسامته عرضا و هو يستحضر قول أحد أصدقائه المساخيط مادحا البيرة: حين أشرب البيرة آكل جيـــدا. حين اشرب البيرة أتحدث جيدا.حين أشرب البيرة أعمل جيدا. حين أشرب البيرة أضحك جيدا. حين اشرب البيرة أفكر جيـــدا. حين أشرب .....

و كان يحلو لـه أن يسخر منـه فيعارضـه: حين تشرب البيرة يكثر شخيرك. حين تشرب البيرة يكثر بولك. حين تشرب البيرة تشكو جيوبك. حين تشرب البيرة يكثر هراؤك. حين تشرب البيرة يكثر نهابك. حين.... فيقاطعه: اسكت يا ذا العين الكليلة. فيرد عليه: نعم يا ذا العين الراضية.

و تساءل لماذا تقترن الخمرة بالمرأة بالذات؟ و سرعان ما أصابه الملل من التفكير في الإشكاليات و الفرضيات و الاستمارات...

حين رأته المرأة ذات العكازين مقبلا نحوها تأملته و حاولت أن تقرأ من ملامح وجهه و هيئته مقدار ما يمتلكه من السخاء و العربدة. أول ما لفت نظرها نوعية النظارتين اللتين يحملهما و الطريقة التي يحمل بها الكأس الممتلئ نصفها و ابتسامته التي تزداد انحرافا نحو الشمال و الأسلوب الذي استأذن به للجلوس قربها.

- هل بالإمكان أن أجلس بجنبك؟

- تفضل يا أستاذ.

جلس و ابتسامة عريضة تحتل وجهه:

- كيف عرفت أني أستاذ؟ هل هذا أسلوبك في الكلام أم أن هناك غبرة ما تزال عالقة بجبهتي؟

- سيماهم في وجوههم.

فكر دون إعراب، بل سيماهم في جيوبهم، ثم قال:

- لم أكن أعلم أنك فقيهة.

- هل أطلب بيرة لنستمر في الكلام؟

- بكل سرور، أعرف جيدا أن الكلام هنا له ثمن.

- و ماذا تفعل أنت غير بيع الكلام يا أستاذ؟ المكان فقط هو الذي يختلف.

أحس بهذه الإجابات تفتح شهيته للجدل. و ظن في قرارة نفسه أنه يحظى، هذا المساء، بمخاطبة امرأة تتميز بنوع من الذكاء. ثم أردف قائلا:

- و لكن هؤلاء الزبناء لهم من فرص الكلام بالمجان ما يغنيهم عن التكاليف الباهظة في هذا المكان.

- إني أقدر الأمر من منظور مختلف، فأغلب زبناء هذا الحان متزوجون و بإمكانهم الاكتفاء بالكلام مع زوجاتهم مجانا، فلماذا يترددون على هذا المكان بكثرة تلفت الانتباه؟

- قد تكمن المسألة في استبدال البقر.

انتبه فورا إلى مقدار الابتذال الذي تحمله هذه الإجابة فسارع يقول معتذرا:

- أعتذر عن هذا التشبيه.

- نعم إني، بشكل ما، ألعب دور المرأة البديلة، المتخيلة...

- ... و الوهمية.

- أنا بائعة هوا... اطلب لي من فضلك بيرة ثانية!

شعر بثقل هذا الكلام على نفسه، ففكر في الانحراف به في اتجاه آخر:

- دون مجاملـة، لاحظـت أنـك تختلفـين عـن الأخريـات. زميلاتـك جلهـن سطحيات، بئيسات التفكير.
- ربما يعود ذلك إلى قصتي القصيرة جدا: ولادة في عائلة كثيرة العدد، قليلة العدة. غـاب عنهـا عائلهـا منـذ أمـد بعيـد فعوضـته أم قليلـة الحيلـة. شـهادة جامعية في مدينة كثيرة الهبش ثم هجرة إلى بلدة كثيرة السواح للعب دور المرأة الوهمية أمام الرجال الخائبين.
- قصتي أنا أقصر من قصتك بحيث لا داعي لحكيها.

عندما رفع يده لطلب بيرة أخرى، استرعى انتباهه اندفاع شاب متأنق جدا، تتوسط جبهته دبرة مدبوغة. كان يتلفت يمينا و شمالا باحثا عن مكان مناسب للجلوس. كان يمسك في يده كيسا أسود. اختار طاولة منعزلة. تابعه الأستاذ بنظراته. يبدو هذا الوجه مألوفا. قد يكون أحد تلاميذه القدامى. تأمله حينا. إنه الآن يتذكره جيدا. لقد كان تلميذا منطويا ضعيف النتائج. طلب الشاب من النادل مشروبا حلالا، عبه على عجل. ثم تسلل كالهارب خارج الحان تاركا الكيس الأسود تحت الطاولة. فكر في أن يدركه لينبهه إلى الكيس الذي نسيه، و لكنه سرعان ما أحس بسخافة هذه الفكرة، فقد يكون التلميذ القديم خرج للبحث عن سيجارة بالتقسيط أو لحاجة أخرى.

استأنف الحديث مع المرأة الوهمية، و لم تمض غير لحظـات حتـى حلت بهمـا خاتمة قصتهما القصيرة جدا.

النـــــار

أعترف أنك هنا، داخلي، تختفي في مكان ما من هذه الجغرافية المتشعبة. ترصدتك كثيرا دون جدوى، فأنت دائب الحركة لا تكف عن الهروب و الانفلات. استعملت في مطاردتك مختلف الطرق و الوسائل، لكنك كنت دائما تجد أنجح السبل لحماية جبروتك من كل أسلحتي سواء منها التي صنعت من عرقي و دمي أو التي استوردتها من خارج البلاد.

إنك لعدو جبار عنيد قاهر ظالم. لا تعرف الرحمة قلبك المتحجر. اغتنمت لحظة ضعف عابرة، و نزوة تافهة كان فيها جهل العاطفة مسيطرا، و قوة العقل غائبة لتجتاحني بجيوشك المتمرسة على ضروب القتل و التنكيل.

تتظاهر بالموت مدة فأحسب نفسي في مأمن من قسوتك، فإذا بهذا الوجه الذي ألف الانكماش يعرف ابتسامته القديمة. و هذه اليد التي تظل مختبئة في جيب المعطف المتآكل ترفع تحيتها للجار المتطفل، أو تؤدي بسخاء حساب بعض الزملاء البخلاء لنادل المقهى. بيد أنك تظهر من مكمنك، دون سابق إنذار، بقسوة أشد و شراسة أفدح.

أعرف مدى تعطشك لتوسيع مجالك و رغبتك المرضية في العربدة في كل وقت و في كل مكان. لكني سأحبسك هنا بداخل هذا الحيز الجسدي المحدود. سأحاصرك حصار الموت. لن أموت وحدي. سنموت معا و سيكون موتنا نصرا لي وحدي أستحق عليه أكاليل الورود.

أعرفك جيدا. أعرف شخصيتك المريضة المتذبذبة. فبمقدار قوتك و جبروتك أستطيع تقدير جبنك و نذالتك. نفذت إلى مملكتي عبر أعز و أرهف منطقة فيها، و في وقت كانت فيه كل قواي مرتخية و مفككة.

و في هجومك استعنت بعدد لا يحصى من الحلفاء و الخونة و العملاء: ظلمات الجهل و ركامات التخلف و تاريخ الكبت و الوساوس المندسة في أقمطة الروح، و الكوابيس المنبثة في غياهب الليل، و الشقاء الذي لا ينتهي.

و لكني ما زلت لا أعرف من أين أتيت؟

بالأمس سمعت قهقهاتك الساخرة، و أنا تائه في الشارع الملكي و شعور عميق بالوحدة يلفني بالرغم من ازدحام الشارع بالكائنات البشرية، و المومياءات و الأشباح و الشفاه الملونة و الضحكات الباهتة و ماسحي الأحذية و بائعي الذرة و الذين يعبرون و يمرون كمدرعات صغيرة.

لا أنتظر شفقتك. الأعداء إذا طالت عداوتهم قد تتحول إلى صداقة لا تنقض عراها إلاّ عداوتنا فلن تزداد إلاّ شدة و احتدادا.

كم يلذ لك أن تراني وحيدا في هذه الحرب، يائسا من بلوغ نهاية لهذا الألم. و لكنك تعجز عن إخفاء غضبك حين تتذكر أن اليأس لحظة عابرة أما الأمل فيمتلك الزمن. و كم تكون حنقا لمّا تراني أضحك أو ألعب أو أردد قولة شارلي شابلن:" اليوم الذي لا نضحك فيه هو يوم ضائع". فيدفعني غضبك إلى ترديدها في كل وقت و في كل مكان.

تندفع بقوة هوجاء مستجمعا كل حقدك و ضغينتك. تسدد ضربات موجعة متتالية. فتنصعق الأعصاب و تتمزق الأحشاء و يتفجر الدم من المسام. أتألم حد البكاء فيغشاك الانتشاء أيها السادي إلى حد الغيبوبة.

أنهض من رمادي. تنتظر أن أستجدي الشامتين حتى أستقوي بهم على نسيانك. و يخيب انتظارك لأن حربنا لا ينهيها غير الموت، فهل أستجدي الناس لأموت؟

لا موت بلا شجاعة و هي آخر سلاح أمتلكه في هذه الحرب القذرة.

سأنتصر في النهاية دون شك لأني أنا الذي سأحدد شكل هذا الموت و وقته.

فكرت في هذا الأمر طويلا و قلبته من جميع الجوانب. ثم وصلت إلى سر انهزامك.

في البدء كان الماء و به النهاية. ارتماء في أعماق البحر و امتلاء حتى الاختناق. لكن هذا الحل يرضيك و يثير نهمك الفظيع. لأنك متأكد أن أسراب السمك ستقبل على وليمة نهايتنا بشهية كبيرة، فيسهل عليك عندئذ أن تصير شوكة مسمومة في خياشيمها و من هناك إلى حلوق جميع آكلي الأسماك.

في البدء كان التراب و به النهاية. فكرت في حفرة أردمك فيها معي. فضحكت من هذا المخطط حتى استلقيت على قفاك. لقد كان الدود دوما صديقا للجيف، به ستنتقل إلى نسغ الأشجار و"أمعاء الملوك".

في البدء كانت النار و بها النهاية و الكمال. عبد الناس قديما التراب و الماء و لكنهم كانوا أكثر عبادة و تقديسا للنار. قدموا لها القرابين. أغرموا بها و حضنوها بين أيديهم و جوانحهم. و من لا نار له لا بر و لا بحر له. لا دود و لا سمك فمن أين تفلت؟

إني اخترت النار. ألا تعلم أني من سلالة بروميثيوس.

تنـــــاظـــــر

عرفتـــــه منذ أيـــام الصبـــا. هو بالنسبة إلي أكثر من أخ و أكثر من صديق. فقد ظللنا منذ ذلك العهد متلازمين كالشخص و ظلـــه، لا يفارقني و لا أفارقه إلاّ حين يذهب كل منا إلى منزله في آخر النهار. و مما متن توافقنا و انسجامنا أننا ولدنا في نفس اليوم و نفس الشـــهر و نفس السنة و ربما في نفس الساعـــة. لقد كنا أقرب إلى التوأمين.

الزقاق نفسه كان يجمعنا. وما زلت أحتفظ بذكريات شغبنا و المعارك الكثيرة التي كنا نخوضها جنبا إلى جنب كجنود مدربين ضد أطفال الأزقة المجاورة. و لم يكن بين أقراننا من يجرؤ على إيذاء أحد منا، لأن الخصم كان يواجه أربع قبضات شديدة بدل اثنتين. و ليس ثمة من شك أن الواحد منا كان يكمل الآخر بأقصى قدر من الكمال. فبالرغم من قصر قامتينا فقد كنا نشكل جسدا واحدا قويا شديد العناد.

و تشاء الصدف أن نلج أبواب المدرسة في وقت واحد. و نجلس على نفس المقعـــد. و لا تكاد تمر أيام معدودة حتى نصبح محط اهتمام معلمنا بتفوقنا و حماسنا لاختراق عالم المدرسة. وما زلت أذكر، رغم ذلك، بعض المشاكل التي كانت تعترضنا في هذا العالم العجيب بسبب تشابهنا. فعند الامتحانات كانت إجاباتنا تتشابه إلى درجة التماثل. و من الأمور التي زادت المشكل تعقيدا، أن الخط الذي كان من المفروض أن يميز أحدنا عن الآخر، كان أقرب إلى الاستنساخ عند كلينا. و قد اختلط الأمر على معلمنا فصار يشكك في نزاهتنا. و من غير أن يستشيرنا قرر أن يفرقنا رغم احتجاجنا

الصامت.لكن إجاباتنا ظلت متماثلة. فلم يجد بدا من أن يجمع شملنا من جديد، دون أن يخفي حيرته أمام هذا التوافق الاستثنائي.

و ما زلت أذكر أيضا أن هذا التوافق لم يمنع، مع مرور الزمن، من أن تنحرف ميولاتنا في اتجاهات مختلفة؛ فقد كان هو أميل إلى مواد اللغة العربية، بل كان مهووسا بالشعر دون أن يعوقه ذلك عن تألقه في المواد العلمية. أمّا أنا فقد كنت منجذبا إلى كل ما يتعلق بالعلوم الفيزيائية و الطبيعية مع أني كنت أحفظ ولو بغير حماس من النصوص الأدبية ما يجعلني أبدو في بعض المجالس كالمتأدبين.

صرنا نتسلق أسلاك التعليم كمردة أسطوريين. و صارت ميولاتنا تزداد وضوحا و اختلافا. و كان هذا يجز بنا في مناقشات لا نهاية لها. قلبه كان يخزن من الشعر آلاف الأبيات، دأب على أن يقذف بها في وجهي في كل وقت، بمناسبة أو بغيرها. كما كان هو نفسه ينظم قصائد كثيرة حتى صرت لا أميز بين ما يؤلفه و ما يحفظه من أدب الشعراء. و قد كان يحلو له في لحظات سكره أن يمزج بين أشكال الشعر بصور إبداعية رائعة، كما لو كان الشعر كله من تأليف شاعر فريد يخترق الأزمنة.

في مثل هذه الأوقات كنت التزم الصمت و أصغي إليه باهتمام. و أحيانا أستفزه ساخرا:

- لست من الغاوين لأتبعك في كل واد تهيم فيه.

فيرد عليّ بهدوء الحكماء:

- إذا كنت لا تؤمن بأي جوهر شعري للإنسان، فإنك تقصي نفسك من الإنسانية.

- لم تتحقق الإنسانية للبشر إلاّ بالعمل أي بالعقل، أما الشعر فقد كان دائما نتيجة للخوف و المرض و العجز كالدين تماما.

كانت تناقضاتنا تحتد و تزداد شراسة. دون أن تتأثر بذلك عرى صداقتنا المتينة. هو منغمس في الشعر حتى الجنون. و أنا أبحث في القوانين الصارمة التي تتحكم في هذا الكون المادي. غير أن هذا الاختلاف انعكس، على نحو متفاوت، على مواقفنا و سلوكاتنا إزاء أساتذتنا و زملائنا و كل من كنا نتعامل معهم بشكل عام. فاهتماماتنا الفكرية لم تبق حبيسة الذهن بمعناه الضيق، بل تجسمت و توحدت بأسلوب سلوكنا في الحياة اليومية و ما يقتضيه ذلك من مختلف التصرفات و الاستجابات، بل أكثر من ذلك ارتسمت على ملامح وجهينا. فبينما كان يبدو بوجه طفولي أشبه بالأيقونات الملائكية، يدفع بعض الأصدقاء من حين لآخر للتندر بسذاجته، كنت بخلافه أبدو بل أتكلف أن أبدو بمظهر الرجل الصارم بملامح قاسية. لا أسمح لأي أحد مهما علا شأنه أن يتطاول على جديتي. و بالرغم مما قد تسببه هذه المواصفات الجافة من نفور، فقد كان حضوري في كل مجلس يثير الهيبة عكس ما كان يثيره وجوده من سخرية، بالرغم من وداعته و طيبة عشرته.

ومما أعانني على التحكم في مواقفي اتجاه الناس بمختلف طوائفهم و فئاتهم، وعلى تقدير المسافة اللازمة بيني و بينهم، و استعمال أنجع السبل للتأثير فيهم، اطلاعي على الدراسات المنجزة في مجال علم النفس السلوكي. و طالما نصحته دون جدوى باستبدال استراتيجيته الاجتماعية

و بوضع برنامج أكثر صرامة يسعفه في الاندماج. و كان في غالب الأحيان ينفجر في وجهي قائلا:

- إلى الجحيم أنت و برنامجك الآلي فأنا لست حاسوبا أو روبو.

فأجيبه:

- إنك تعيش هذا العصر بعقلية غير إجرائية، فلا قيمة اليوم لشعر لا يقرؤه سوى أصحابه.
- هل من الضروري أن تكون أشبه بالآلة لتقدر على العيش في عصرنا؟
- ليس من الضروري أن تكون كذلك، و لكن الضرورة هي أن تستوعب المنطق المتحكم في سلوك البشر، و القوانين المادية التي يسير وفقها هذا العالم.

و يسعى لحسم النقاش بيننا:

- بالشعر آمنت و بأنبيائه صدقت و لآلهته سجدت.

و أحسم بدوري النقاش:

- إنك تراهن على الفشل.

و كلما اشتد اختلافنا أزداد إيمانا بصداقتنا. و كلما فكرت في قطع علاقتي به أجد نفسي باحثا عنه في المكتبات و المقاهي مستحضرا عشرتنا القديمة و تاريخنا المشترك. و بالرغم من اهتماماتي التي لا سبيل للغة القلوب إليها، كنت أحتار في تحديد شعوري نحوه إذ هو يتأرجح بين الشفقة و الحب و الكراهية.

و مع انغماسي في عالم التجارب و الاختبارات كانت غيبته تطول أكثر من ذي قبل. فكنت أضطر إلى النزول من برجي للسؤال عنه كمريض

يبحث عن طبيب يداويه. رأيتــه مرة كالحلاج تائها بأحد الأزقة الشعبية الضيقة بشعر كثيف و لحية متشـــــــعثة و ملابس متسخة. كان بعض الصبية يتعقبونه. نهرتهم بشدة و انفعال. اقتربت منـــــــه و دموع تتأهب للخلاص من عيني. قلت له في ما يشبه الهمس:

- ماذا جرى لك يا صاحبي؟

رد علي بحزن لا يطاق:

- لقد انتهيت يا صاحبي انتهى كل شيء الشعر و الحب و الثورة. لم أكن أدرك أننــا نعـيش زمــن الخيبــة و الــردة فــي كـل شــيء... الحبيبــة و الناس الذين كتبت عنهم حتى الرماد كلهم خانوا... سعاد هاجرت إلى الخلـيج و النــاس الــذين أحببــتهم يطــاردونني و يرمــونني بالضــلال و الأحجـار. عرفـت الآن أن القصـيدة لغـة معشـوقة يسـتحيل أن تكـون امرأة أو بشرا مسحوقا لهم زمن و لها زمنها انتهيت قبل النهاية أنت أولى بهذا الزمن يا صاحبي.

أحسست عندئذ أنه يبتعـد عنـي بمسافات ضـوئية كمـا أحسست أن عضـوا يبتــر من جسمي بوسائل بدائية.

بعد أيام معدودة ورد في إحدى الجرائد المحلية خبر اعتقاله. و في تاريخ آخر قرأت في الجريدة نفسها خبر تحويله إلى مستشفى الأمراض العقلية. كنت حينئذ أتحول شيئا فشيئا إلى صخر أو أصلب من الصخر.

عصـــا مـــوسـى

دق البـاب دقـات وجلـة متتاليـة. أطلـت عليـه امرأة عجـوز خضـبت شـعرها بحناء سالت شعبـا بيـن تجاعيد وجههـا و عنقهـا. بحذر أقرب إلـى الخـوف، و صوت أشبه بالهمس قالت: تريد "الزواق" ؟ "الزواق*" ليس هنا.

أمـام خـراب أسـنانها فكر فـي عجـز فمهـا عن قـضم أنويـة نـوار الشـمس المحمصـة. شـعر بسـخافة فكرتـه ثـم اسـتعاد فـي اللحظـة ذاتهـا مشـهد أسـنان مكسرة، و وجه ملطخ بالدماء. فبينمـا هو راكـب حافلـة النقل العمومي باتجـاه منـزل "الـزواق" صـرخ أحـد الركـاب فـي وجـه جـاره الـذي احتـك بمؤخرتـه بسبب الازدحام: سأهدم أسنانك. و لم يكد يتم وعيده حتـى دمغـــه الآخـر بكل ثقل رأسه، فتناثرت قطرات من الـدم علـى الزجـاج المضـبب بأنفـاس الركـاب. و تابعت الحافلة سيرها و نزل الركاب في محطاتهم دون اكتراث لما وقع.

و وصل هو إلى دوار "تازغين" دون أي مكروه.

سأل العجوز ذات الحناء السائب: هل تعرفين أيـن ذهـب؟

أجابته و هي تمسح لطخة حناء عن أنفها المقوس: لقد أمسكته الشرطة.

تمثـل البحر أمامه بزرقـة سـاحرة، و فتـاة شـقراء اختلسـتها مخيلتـه مـن تلـك الأفـلام التـي تلتـوي الأجسـاد أمامهـا و تعـوي النفـوس كالـذئاب الجائعـة. و تـدفق مـن ذاكرتـه سـيل يجـرف معـه الصـخور و الجـدران و الأطفـال و النسـاء و البقـر. "الـزواق" أمسـكته الشـــرطة و أمسـكت معـه آمالـه فـي العبور. و ليس من العبور بـد سواء إلى الضفة الأخرى أم إلـى فم الحـــوت. لابد من العبور.

سألها : متـــى و كيـف؟

ازداد انهمار الحناء على وجه العجوز. و بدا أنها يئست من تنشيفه فاستسلمت لانهماره حتى صار وجهها كلوحة يعبث بتشكيلها فنان قليل الموهبة.

قالت بضجر و لامبالاة: سكر البارحة فكسر رأس "أحمد الكبريت" بزجاجة.

سينتظر إذن، لا مهرب له من الانتظار. و هل يعرف أحدا غير "الزواق" يدله على طريق للعبور، و يعلمه حرق جوازات السفر و التأشيرات و الحدود الفاصلة بين الجوع و الشبع، بين الفراغ و العمل، بين الدوار و باريز و برشلونة، بين صقيع الفقر و التواءات الجسد المجنون كما تصوره تلك الأفلام التي...

استوى بل اعوج على مقعده في المقهى. نفث دخانا و أوهاما و أحلاما و سرابا و غربانا كاكية. و شاي أمامه يبكي الوطن. كيف ابتليت هذه البلاد بالبوار؟

باع أبوه البقرة من أجل وثبة بين ضفة و أخرى. و لكن هل هي وثبة أم عمر؟

قال أبوه: تكفينا هذه العنزة يا ولدي.

عندما اختلى بنفسه تحت شجرة الخروب المنخورة جمدت دمعتان في عينيه :" فيا أبتاه .... هيهات أن تخدع اللغة ابنك "موسى" فعنزة الاكتفاء غير عنزة الكفاف. كف يا موسى عن ملاحقة السدى، فلك "الإجازة" و لك رجال البلاد. و لك وطن تتعصب له في مباريات كرة القدم. و راية يرفعها عداء على ساقين من ريح. انس يا موسى الهراوات التي كسرت أضلع المعطلين و عطلت أحلامهم و حولت "الإجازة" إلى جنازة.

انسدل الظلام و بضعة مصابيح تصارع غبش المساء. ها هو ذا المساء يعود مرة أخرى و كلاب الليل ترتاد قماماتها المعتادة.و مقهى "إشبيلية" يشهد انك لست وحدك المنكوب، فالعيون المكدودة و الأذهان المسدودة و البطون المشدودة كلها تشهد...بل كل هذه المقاهي التي تتناسل بأسماء ذات سراب: اشبيلية، ميامي، لاس بالماس، دالاس، غرناطة، فرانكفورت، فرنسا، باريز، هولاندا، الأوبرا... كلها تشهد أنك ولدت في وقت خطأ و مكان خطأ، فارجع إلى رحم أمك من أجل ولادة أخرى.

مساء آخر يعود و "الزواق" كالسراب تمسكه الشرطة و لا تمسكه المواعد.

أخرج من جيبه لفافة تبغ ذرحها بعناية. السماء هجرتها النجوم و احتلتها قعقعات الرعود و شرارات البروق. عواء الكلاب الضالة و مواء القطط الكئيب و تسابق المارة نحو موقف الحافلات ينذر بمطر طوفاني.

أحس بلفافته رغم اتقادها تطول و تمتد. و شعر برأسه تملؤه صلصلة الأجراس و هدير الأمواج و هي ترتطم بالصخور. و بين الدهشة و الاستغراب و اليقظة و الانخطاف تراءت له اللفافة و هي تتحول إلى عصا ناصعة البياض. و صار يسمع هواتف أثيرية تأمره بصوت رائع : يا موسى أمسك العصا بيمينك و اتجه نحو البحر شمالا. خلص هذا الشعب من بؤسه، فقد طال انتظاره و نفد صبره. طوبى للذين يتبعونك نحو "الحلق*" حيث يلتقي الماء بالماء و يمتزج العذب بالمالح.

أشار بعصاه نحو ما تبقى من رواد المقهى. و كانت هذه الإشارة البسيطة أبلغ من كل كلام. و كان النادل أول المسارعين إلى اللحاق به. أخذت الكائنات الليلية تتقاطر من حوله حيثما مر؛ بائعو السجائر بالتقسيط

و ماسحو الأحذية و سكارى الخلاء و شباب مقاهي آخر الليل و أحد الشعراء التائهين و الحراس العجزة لمواقف السيارات و ساكنة القناطر و الأودية و المجانين و المعتوهون و بعض الأزواج المطرودين و عاهرات الدرجة الرابعة و الأطفال المشردون و القطط و الكلاب الضالة...

اختلفت الصحف حول عددهم. قيل سبعون ألفا و قيل أكثرمن ذلك، و الله وحده يعلم عددهم.

كانوا جميعهم يتبعونه في صمت جنائزي كأنهم يشيعون ميتا عزيزا. عيونهم مشدودة أبدا إلى عصا موسى.

حين وصل "الحلق" و الخلق من ورائه كان شعره قد استرسل و لحيته قد كثفت و استطالت. نظر خلفه نحو الهبش رافعا عصاه إلى السماء ثم قال: الليلة خلاصكم، سأحرق بكم المسافات و الحدود دون قوارب أو جوازات سفر. سأشق بكم البحر فاتبعوني.

انتبه خفراء الساحل إلى وجودهم و لكن سرعان ما ذاب كثير منهم في هذا السيل البشري بينما تهامس قوادهم: الليلة ستتطهر البلاد من قذاراتها.

ضرب موسى، الذي حاز على شهادة عليا في الفلسفة سنة 1986، بعصاه البحر فانشق إلى شقين، و صار كمتحف علمي للكائنات البحرية. و بين الماء و الماء امتدت في وجه موسى طريق معبدة ذات اتجاه وحيد. حينئذ اندفعت مسيرة الهبش الزرقاء اندفاع شاحنات النقل الكبيرة. و كاد موسى أن يهلك تحت أقدام المندفعين.

ما كادوا يقتربون من الضفة الأخرى حتى سمعوا أزيزا يصم الآذان. توقفوا لحظة. بحثوا بأبصارهم في كل الجهات و أرهفوا السمع عسى أن يعرفوا

مصدر هذا الأزيز الذي لا يطاق. و فجأة شعروا بأضواء باهرة تغشى أبصارهم، و إذا بأسراب من طائرات الهيلكوبتر تحلق فوق رؤوسهم كعقبان أسطورية. و أمامهم رصت صفوف لا حد لها من الجنود المدججين و الكلاب المدربة و الدبابات المكشرة عن مدافعها.

في غمرة الرعب و الهلع تذكرت مسيرة حارقي المسافات موسى و عصاه. رجوه أن يستخدم عصاه ليفك عنهم هذا الحصار، لكن موسى سكت طويلا. و لما أعياهم الصبر على سكوته صاحوا في وجهه: ألم تعدنا بالخلاص يا موسى؟

أجابهم و دموع تتلألأ في عينيه: إن عصاي تشق البحر و لكنها لا تشق هذا الجدار المسلح.

و ما كاد ينتهي من كلامه حتى انقض عليه الهبش بكل ما أوتوا من غضب و يأس فكسروا عظامه و كسروا عصاه. عندئذ أخذ شقا البحر يتقاربان و ينطبقان شيئا فشيئا على موسى و مسيرته الزرقاء.

قيل سبعون ألفا و قيل أكثرمن ذلك و الله وحده يعلم عددهم.

- "الزواق": لفظة محلية تعني الزئبق.
- "الحلق": مصب نهر ملوية في البحر الأبيض المتوسط.

مقـــايضـــة

فـي سـاحة المدرسـة، كـان الطفـل يلتـذ بامتصـاص قطعـة الشـكلاطة. و كانـت الطفلــة قبالتــه، لا تكــاد تفارقــه بعينيهــا و هــو يلحســها بلســانه المتلألــئ، و يستمتع برحيقها القهوي.

كانـت تبتلـع ريقهـا فـي دفعـات متقطعـة، و هـي تقتـرب مـن الطفـل بخطـوات حذرة. كانت دائما تعجز عن مقاومة تحلب فمها عندما تتحدث زميلاتها عن الحلويات اللذيذة و المأكولات الشهية. كانـت فـي مثـل تلـك المواقـف، تتـألم فـي صمت أو تتظاهر بالسعال.

كان الولـد مـا يـزال يداعب قطعتـه الشكلاطية بكل حنـو. أحست بغصـة تمـلأ حلقها. و تذكرت قطتها الرمادية و هي تلفظ أنفاسها الأخيرة، مساء يوم الأحد الماضي، على إثر تناولها لسم وضعه لها بعض الجيران.

الولـد الأنيـق الملبس غائـب فـي لذتـه، لا يشـعر بشـيء ممـا يحيط بـه. يتـذوق الشكلاطة و هي تنزل علـى لسـانه برهافـة و نشـوة، نـدفا مـن الثلج علـى غابـة أرز لانهائية الحدود، حلما ربيعيا يمطر دراهم و حلوى.

فتشت في جيوبها عسى أن تجد في إحدى ثناياها درهما أو نصف درهم. ربما تحدث معجزة فإذا بكل جيوبها مكتنزة بالدراهم. تمنت لو كان بحوزتهـا درهـم واحد تشتري به ما يطفئ رغبتها الحادة.

الولد الأنيق يكاد يأتي على الشطر الثاني من قطعتــه اللذيذة. كم هو محظوظ! ينتظره أبوه دائما، أمام الباب الكبير للمدرسة، بسيارته الجميلة. يغمره بالهدايا و يملأ جيوبه بالحلوى و الدراهم اللامعة. لا شك أنه يحبه كثيرا. لا تدري لماذا لم يشأ أبوها أبدا أن يقتطع و لو لحظة قصيرة من وقته ليسألها عن

نتائجها، و هي متيقنة من أنه لا يعرف حتى مستواها الدراسي، فأمها هي التي سجلتنها بالمدرسة رفقة إحدى الجارات. و لا تتذكر و لو مرة واحدة، سألها فيها عما إذا كانت بحاجة لقلم ملون أو حلوى. قد يكون سبب ذلك أنها خامسة أخواتها أو لأن أباها يريد ذكورا لا إناثا أو...

اشتدت رغبتها. أحست أنها مدفوعة بألف يد. عيناها لا تفارقان الشكلاطة و هي تتلاشى شيئا فشيئا في فم الولد. اقتربت منه. مدت يدا مترددة شعرت لحظة أنها ليست يدها. ابتعد الولد نافرا منّها. تذكرت قطتها الرمادية و هي تطارد فأرا مذعورا بين أكياس الشعير و العدس. امتدت يدها أكثر حتى لامسته، فإذا هو يزداد نفورا.

ابتسمت له ثم خاطبته بصوت أشبه بالفحيح: إذا أعطيتني شيئا من الشكلاطة، فلن أسجل اسمك أبدا على السبورة لمّا يغيب المعلم عن القسم.

تشبث بقطعته و بدا غير مكترث بما عرضته عليه. خشيت أن يلتهمها كلها دون أن تنال منها و لو مصة واحدة. أدركته ثم قالت له: إذا أعطيتني شيئا من الشكلاطة تركتك تنقل مني في الاختبار.

أحست أنه صار أكثر انتباها لما تقول. فكر قليلا ثم هز رأسه ذات اليمين و ذات الشمال.

الغصة تسد حلقها من جديد. و رغبتها تزداد تأججا. اقتربت منه أكثر فأكثر حتى كادت تلامسه بكل جسدها مصممة على تسديد طلقتها الأخيرة. همست حينئذ في أذنه: إذا أعطيتني شيئا من الشكلاطة منحتك قبلة.

جبل العفاريت المتمـردة

"أولاد إدريس" ليست قرية و لا دوارا أو مدشرا. هي شتات من منازل مبعثرة هنا و هناك بشكل عابث، على هضبة مترامية الأطراف.

يعمل هنا معلم اسمه مسعود. و مسعود هذا يضحك كثيرا عندما يسمع اسمه يتردد على ألسنة الآخرين كما لو كان الأمر يتعلق بشخص آخر. من ميزات شخصيته أنه لا يرضى عن حاله، و لا عن حال الناس الذين يختبئون في القناعة و الصبر، خوفا من قدر مشؤوم هم غارقون فيه حتى الآذان.

لا يتوقف مسعود عن الحديث عن التناقضات التي تنخر بلاده. كان رفاقه يعترفون بقدرته الهائلة على كشف كل مفارقة تحدث في البلد. و أحيانا كثيرة كانوا يجدون فيه ضربا من الهبل. و هذا ما كان يجعل أحاديثه ممزوجة بنكهة عجيبة. حين يريد أن يبدي رأيا أو يفسر ظاهرة يستهل كلامه بعبارة لا يعقل حتى أصبح معروفا بهذه العبارة، مما جعل رفاقه يلقبونه بالمعلم "لا يعقل".

شاب في النصف من عقده الثالث. متوسط القامة. شاحب الوجه. مسوس الأسنان بفعل السجائر الرخيصة. يحاصر نفسه بالأسئلة الصعبة. و يحاصر الناس بقلقه الدائم و شحوبه القاتم. يعمل في المدرسة الوحيدة بأولاد إدريس. و هي مدرسة منعزلة لم تعد تثير أي وقار أو احترام، كما كان شأنها في الماضي حين كانت تعبد الطريق لطلبتها ليصبحوا حكاما و قوادا يسوسون الناس بالعصا. لقد صارت هذه المناصب تحتل اليوم دون حاجة إلى المدرسة. في ذلك العهد السعيد كان المعلم صاحب شأن. كان يفطر

بالبيض المقلي بزيت الزيتون غير المغشوشة. و يتغدى بالدجاج البلدي. ترى ماذا أصاب الموائد حتى أصبحت ناشفة إلاّ من عدس او بيصرة بائسة؟ لعله زمن القناعة و البيصرة. يردد مسعود كثيرا كلاما أصبح مشهورا به: لا يعقل أن تكون البيصرة قدرا محتوما علينا. لا يعقل أبدا. ثم يسكت ليغلفه صمت عميق.

تقع المدرسة التي يعمل بها مسعود قرب مسجد بئيس بني بالطين في شكل مائل يعطيك انطباعا أنه سيسقط في اللحظة التالية. روى له أحد الفلاحين أنه بني على عجل، بسبب خصام وقع بين جماعة أولاد إدريس و إحدى الجماعات المجاورة لها. في مواجهة باب المسجد المهترئ يوجد جب أسنت مياهه، فطفت على سطحها الطحالب. و صارت سوقا للحشرات الكثيفة و مسكنا هادئا للضفادع التي يتناغم نقيقها مع أذان الفقيه المرابط بالمسجد. و هكذا كان مسعود يكرع الماء الطحلبي، على أنغام الجوقة العجيبة، بصحة زمن الصبر و البيصرة.

لم يسلم الفقيه هو الآخر من سوء العيش. فهو لا يفترعن الشكوى لمسعود من تدني الأحوال. و كان هذا الأخير يصغي إليه باهتمام مغمغما من حين لآخر بكلمات غير مفهومة. تبكي الكلمات و تخجل العيون من دموعها المتساقطة. ما أتعس العيون لولا الكلمات! قال الفقيه: تحولت البيصرة إلى صديد. و صارت معدتي منهوكة، سريعة العطب.

و قال أيضا: ليس الحرف سوى منفى.

- و متى كان الحرف حرفة ؟ عقب مسعود.

تتوفر المدرسة على سكن أو ما يشبه السكن يضطر المعلمون إلى استعماله. إنه بناء قديم يتكون من غرفتين شبيهتين بالأقبية المتعفنة.

إحــداهما خصصت للنـوم و الأخرى تستعمل مطبخا. طنجرة مثقوبـة. غـلاي متسخ صار لونه مثل هذه الأيام السوداء.

تتوفر هذه الخربة كذلك على حمام لا يستعمل إلاّ للتبول لأن استعمالها لأكثر من ذلك كفيل بأن ينشر في كل أرجاء هذه الخربة رائحة لا تطاق. يكفي رائحة البول التي يمكن تحملها و التعود عليها. يلتجئ المعلمون ـ مسعود و آخران ـ خصوصا في أيام الشتاء الباردة، إلى وضع إفرازاتهم في جريدة أو كيس ثم يلقونها في الخلاء. ومع توالي الأيام و تعاقب المعلمين صارت الأرض المحيطة بالمدرسة كبعر تكالبت عليه الخنافس بسبب الأكياس المتراكمة. كان مسعود يدرك و هو يحمل في يده إفرازاته الململمة مقدار الإهانة و الإذلال التي تفرضه عليه إحدى حاجاته البيولجية. تضعه هذه العملية يوميا في مواجهة صريحة مع حاجة تجتهد أخلاقه القديمة في إخفائها بشكل مرضي. يتذكر دائما دون أن يضحك، ذلك المعلم الذي ذهب ليزور السيد النائب في نيابته ناسيا في جيب معطفه كيسا بلاستيكيا ململما من ذلك الحجم المعروف. و يعرف أيضا عظمة ذلك الإنسان الذي بادر إلى تصميم المراحيض بالشكل المستعمل حاليا في المدن، حيث يتعامل الفرد مع إفرازاته بصورة غير مباشرة فهو لا يكاد يراها. أمّـا أن تحمل هذه الإفرازات كما تحمل الجثث، فهذا ما كان يلعنه مسعود، مما دفعه إلى التفكير في كتابة تاريخ تطور المراحيض، و مقارنة هندساتها المختلفة من بلد إلى آخر، و الكشف عن دلالة كل هندسة لها. و قد أثار انتباهه وضع المراحيض في سجون بلده. لاحظ أنها مصممة على نحو يزيد في إهانة السجين و إذلاله و انتزاع أخص خصوصياته، إذ يمنع عليه أن يستعمل المرحاض ليلا. و حين يوقظه صوت السجان في الصباح يضطر إلى انتظار دوره وقتا طويلا. اقتنع مسعود أن

المرحاض بشكله الصحي مظهر من مظاهر الحضارة و حق من حقوق الإنسان الثابتة.

يتأمل مسعود جدران مسكنه. يكتشف أنها تشبه لوحة تشكيلية غير منتهية. فقد تآكلت بفعل الزمن و تقشر طلاؤها، فبرز الآجر بألوان طحلبية قاتمة. و في إحدى زواياها ظهرت بعض نباتات الفول و الفاصوليا، لعلها من آثار سيادة الأطعمة ذات البعد الوحيد. أمّا أرضية المسكن فقد حفرت الفئران تحته شبكة من الجحور و اتخذت منه العظايات مرتعا لا تنضب أملاحه و حشراته.

هكذا إذن أصبح مسعود مطمورا، منفيا دون شرف المنفى و دون تهمة معروفة اللهم انتماءه لهذا البلد الذي تنخره الأزمات. هكذا يجد نفسه مولعا بالعوالم الكافكوية. منحوه خشبا و كلسا و وجوها تتلو آيات البؤس و الحرمان. أغرقوه و صاحوا فيه أن ينقذ الغرقى. هكذا إذن أصبح بعيدا عن العالم و مجرياته. بعيدا عن أخبار الجريدة و جلسة المقهى في المساء، عن ضجيج الباعة و هرج الناس في الشوارع و الأسواق... أصبح مطموسا في مكان لا يجد له اسما في خريطة بلاده.

حين أوقف مسعود سيارة التهريب في عمق الليل سأله السائق باستغراب:

ألا تنام أيها القط المتوحش؟

أجابه مسعود بكلمات متراخية:

- كيف أنام في هذا الخلاء! ألديك ما يشفي هذا الأرق الأبدي؟
- ليس من عادتي أن أتوقف في الطريق و لكني أشفقت عليك... لماذا لا تشتغل مهربا و تهني راسك من هذا المنفى؟
- قدري أن أكون كائنا مدرسيا... تعلمت في المدرسة لأعود إليها.

- يلزمك كثير من الشجاعة لتتخلص من سجنك المدرسي... هل تعلم أني حصلت على الإجازة في الكيمياء منذ عشر سنوات!

كان محرك السيارة ما يزال يهدر و أضواء مصابيحها تضفي على الأشياء صورا عجيبة. نظر المهرب إلى ساعته ثم قال:

- إني متأخر و الدوريات لا ترحم. عندي لك زجاجة ويسكي تفجر الدماغ. إني أهديها إليك رحمة بجيبك ...و بعقلك.
- أشكرك شكرا غير محدود.

انطلقت السيارة بسرعة جنونية. شعر مسعود بشبح يتقدم نحوه فتقرفص على الفور لتتاح له الرؤية في الظلام. و لما صار الشبح على مقربة منه زفر طويلا ثم قال:

- هذا أنت أيها الفقيه!
- لقد أيقظني هدير السيارة، لماذا توقفت؟
- أنا أوقفتها طلبا لما يشفي أرقي... هل تشاركني في زجاجة ويسكي؟
- سأشاركك و لكن دون أن أشرب. ينبغي أن أصلي صلاة الفجر و أنا صاح.

حين شرع الشراب يدب دبيبا ناعما في شراييه، أخذت أفكار غريبة تراوده. سأل الفقيه:

- هل تعرف ذلك الرجل الذي يلقبونه هنا ب"كنوز"؟
- أتقصد ذلك المخبول الذي طالما بحث عن الكنز دون جدوى؟
- إنه يتظاهر بالهبل فحسب، بل أعتقد أنه أعقل الناس في هذه الجماعة على الإطلاق. فكل من يبحث عن كنز أي كنز لا يمكن أن يكون عاديا.

يشاع بين الفقهاء أمثالك أن هناك علامات خاصة تدل على مواقع الكنوز، فهل لديك علم بهذه الأمور؟

- لقد قرأت بعض الكتب في هذه المسالة، و لكن لم يسبق لي أن جربت هذا الشيء.
- أنا أيضا قرأت بعض كتب التاريخ و عرفت كيف كان الأغنياء يخفون أموالهم وقت الحروب و المجاعات. لماذا لا نضم ما تعلمه أنت إلى ما أعلمه أنا و نكمل ما ابتدأه " كنوز".
- و لكن بعض الفقهاء يشترطون إراقة دم بشري في مكان الكنز.
- إذا كان هؤلاء يضعون التضحية أو الجريمة شرطا للحصول على الكنز، فإن لدينا من العلم ما يغني عن مثل هذه الفظاعات، إن لدينا سيميائية الكنوز. لماذا لا نقتفي خطوات "كنوز" و نبدأ الحفر هذه الليلة؟
- هل تقصد الذهاب إلى هذا الجبل الناتئ من أعماق هذه البراري، المنعوت هنا ب"تازروت" ؟ يشاع بين سكان هذه الجماعة أن سيدنا سليمان كان يكبل فيه العفاريت المتمردة.
- ذلك ما أعنيه بالذات. و لا أعتقد أنك تخشى العفاريت فهي التي ربما تخشانا. توجد بالمسجد فؤوس يمكن استعمالها. هيا بنا فالكنز ينتظرنا منذ عاد و ثمود.
- كأنك خططت لهذا الأمر منذ أمد طويل.
- و هل يمكنك أن تخطط في هذا البلد الهلامي! اجمع راسك ثم ول وجهك شطر الصخرة الناتئة!
- لنتوكل على الله!

أخذ مسعود مصباحا يدويا و زجاجة الويسكي. و حمل الفقيه فأسا و هو يردد آية الكرسي. و سارا يخترقان ظلام الليل نحو جبل العفاريت المتمردة، و صمت يكاد يلمس باليد يلف شبحيهما. و حين اقتربا من الجبل بدا لهما كمارد عملاق يهم بسحقهما. كب مسعود في جوفه جرعة مقدرة. و صار الفقيه يلهج بآيات من سورة الجن. قال المعلم بما يشبه الهمس: لنتتبع مسار الحجر، لاحظ وضع هذه الصخرة إنه لا يثير الانتباه لكنه وضع غير طبيعي. لنحفر عند أصلها. هات الفأس!

قدم له الفقيه الفأس دون أن يتوقف عن التلاوة التي تحولت إلى ما يشبه التوسل. شرع مسعود يحفر كالمجنون و يتجرع بين الفينة و الأخرى جرعات من الويسكي، و فجأة سمع رنينا تسبقه شرارة تتخطف البصر. صاح مسعود: سدد المصباح هذه الناحية.

توقف الفقيه عن التلاوة لما شاهد شيئا يلمع ببريق ذهبي. ثم قال لمسعود: دعني أكمل الحفر.

عب مسعود ما تبقى من الويسكي. أمسك الفقيه بالفأس، ربما للمرة الأولى في حياته، و أخذ يحفر بتؤدة مستعيذا بالله من الجنة و الناس. و توالت الضربات و حماس الفقيه يتأجج شيئا فشيئا حتى صارت الفأس بين يده كقطعة من الجحيم. و بينما هو يحفر كالمسعور اخترقت ضربة جهنمية قلب الشيء المكنوز فإذا بالحفرة تتفجر حمما من نار، و دوي أشد من الرعد يلقي الرعب بين ساكنة القبيلة الذين هبوا من نومهم فزعين متسائلين عن الانفجار العظيم. أما المعلم و الفقيه فقد صارا أشلاء متناثرة هنا و هناك بين صخور جبل العفاريت المتمردة.

نسجت حول موتهما حكايات و أساطير كثيرة. تقول إحدى الروايات أنهما أرادا أن يفكا قيود العفاريت المتمردة فعاقبهما سيدنا سليمان بهذا الانفجار.

و يحكى في رواية أخرى أنهما كانا يبحثان عن كنز مفقود فعثرا على قنبلة كانت مدفونة تحت الصخر منذ أيام الاستعمار. و في رواية ثالثة أنهما انتحرا بسبب العزلة و سوء العيش. و يشاع أيضا، في رواية رابعة، أنهما كانا يخبئان قنابل في الجبل استعدادا لعمل إرهابي، فلما أرادا نقلها انفجرت في وجهيهما قنبلة قبل الأوان.

احـــذر مـوت هذا الوجـــه

- 1 -

منهوكا يلقـي بجسـده على الفراش كفقاعـة تترجرج، كدمـل ينـزف قيحـــه. تنبـــت علـــى امتـــداد أحلامـــه دمامـــل و بثـــور متفاوتـــة الأحجـــام تنمـــو و تزداد حجمها إلى أن تنفقئ فيرى العالم كله باللون الأصفر.

- 2 -

كـالعادة تظهر شمس فاترة و سحب قادمة من الشمال. و كالعادة يستفيق على صوت منبه مـل رنينه. يتحسس غرائزه ثم يتجه نحو بيت الماء كالعادة أيضا. قطرات من الماء تموت على يديه قبل أن يتكلس عليها صابون مهترئ. يرمي بوجهه في المرآة. هذا الزجاج المصقول ذو الأدوار المتعددة. يفضح نرجسيتك و لا يخفي أثر الزمن على جسدك و ربما أثره على نفسك. اعتاد أن ينظر في وجهه كل صباح، ليتأكد أنه ما يزال على قيد الوجود. بيد أنه هذه المرة حملق فيها بإمعان دون أن يصدق. لأنه لم يجد أثرا فيها لوجهه. أوشكت الدهشة أن تنقلـب إلى غثيان. لعل هذه المرآة القديمة التي ورثها عن جدته لم تعد تصلح لعكس الأشياء.قال في نفسه ثم شرع يبحث بين فجوات الدار عن مرآة غيرها دون جدوى.

- 3 -

لفظك رحـم تعب من كثرة الاستعمال. رتبت بين عشرة أطفال ثم كدست غراماتك اللحمية المتخثرة بين قطع لحم متداخلة. فأي أنياب ستنهش لحمك الرخو؟ و أي شفاه ستمتش عظمك و تمتص عصارة جسدك؟
يزمجـر بيـنكم منفـاخ الألـم و الجـوع، فتنـتفخ الـرؤوس و تتكـور البطـون و تتقوس السيقان الهزيلة.

- 4 -

في الشوارع ذات الأسماء السرابية تمتصه الواجهات. يحاول عبثا أن يرى على زجاجها اللامع شيئا يشبه وجهه أو رسما يشبه اسمه، فلا يرى سوى بضائع و ملصقات إشهارية لا تعيره أي اهتمام. أصوات تغني. أكيد لا تغني له. تضحك بقرة. أكيد لا تضحك له بل عليه. و عطور تلتوي داخل أجساد أنثوية تمتلئ شبقا.

- 5 -

يرسم الألم حول عيني أمك المقهورة بقعا زرقاء. وجه أمك - تلك التي يكاد الصمت يقتلها- لوحة سريالية، ورثت عنه انغراسه في صمت الأموات و اختناقه في رداءة الزمن. في حارتك يمارس الجوع فن النحت. تنتصب هياكل عظمية مادته. يصوب الإزميل يدقه. دق الإزميل لذته. يتشكل احديداب و هندسات تعرض على السواح الأجانب، على دقات الطبول و فحيح المزامير.

- 6 -

حول عنقه يلتف سلك مفتول شائك يشد أحد طرفيه كلب شرس، قد يكون من فصيلة كلاب الشرطة المدربة. يقتاده نحو ورشة العمل. تغوص أشواك السلك في عنقه. تمزق شراييه و تقتلع أخيرا من شدة الضغط رأسه فيتدحرج و لا يتوقف إلا قرب قمامة متراكمة. و هكذا يسير جسده نحو الورشة مبتورا دون أن يتدخل الكلب المـــدرب و دون أن ينتبه سكان الحارة المعروفون بفضولهم و تطفلهم. ترتفع يد لتنخفض أخرى، و قد ترتفعان معا و لا تنخفضان أبدا. و ذلك حسب مزاج الأوامر التي تأتي دائما من الأعلى. عملك شريف و لا شك... إنك تعمل بعرق جسدك و لا تخرج من سوق رأسك أبدا. أنت إنسان مهم. تفتخر بعضلاتك المفتولة و ترفعها تاجا فوق رجولتك. ضع لولبا هنا. ركب قطعة هناك. رتب تلك الملفات. خذ هذا المعول. احمل هذه الصناديق. آت بالقهوة لرب الورش. و في وجهك الممسوح تصرف الأفعال كلها إلى زمن وحيد. تربت يد رقيقة على كتفك العريض. أنت قوي كالبغل و لين كالشيفون. تضحك ببلاهة أمام لافتة كبيرة ملطخة بزيوت التشحيم مكتوب عليها بأحرف خضراء ضخمة: إنكم باستعمال البغال الشعبية ...

- 7 -

يلفظه الشغل عند الظهيرة. لم تكن معدته أبدا مهادنة بعد كل هذا التعب و الإرهاق. و لم تؤمن أبدا بأي طقس يعود الناس على الجوع. و لهذا فهي حين تثور تنتشر عدوى ثورتها في كل أعضاء الجسم. يستنجد بكل قواه الواعية و اللاواعية. يستظهر كل آيات القناعة و يستحضر كل أولياء الله الصالحين، لكن لا شيء من ذلك يهدئ من الانتفاضة الهوجاء المستولية

علـى جسـده. و بعـد مسـاومات و تنـازلات كثيـرة اللجـاج كثيفـة العجـاج يـتم الاكتفـاء بـبعض الزيتونـات و قطعـة خبـز يابسـة. تهـدأ المعـدة مؤقتـا مؤجلـة تمردها إلى حين، و لكنها لا تستسلم.

- 8 -

وجهـه ضـاع منـه. معدتـه فقـد السـيطرة عليهـا. غرائـزه تقتتـل فيمـا بينهـا و يأكل بعضها بعضا. يخسر كل هدوءه كأنه يحتضن كل فوضى العالم. حالة هو دائمة من القلق. حالة يومية من الحرمان. تمر ريح أنثوية بقربه، فتعصف بـه الرغبـة الجامحـة، و يعتصـره شـعور بالوحـدة. الأعلـى قـد اعتقلـه الأسـفل و أوثقه بألف قيد. تتأرجح حاله بين الرغبة و الموت.

- 9 -

تجمح أوتارك الصوتية معلنة رغبة الكلام. ليس هذا الكلام الذي ينسلت من جحوره الكريهة فحيحا ينشر جثثا في كل أنحاء المادة. ليس الكلام الذي يموت على الفم لتصلي الآذان جنازته دون طقوس. هذا الفحيح الذي يملأ الطرقات، و يتطفل على الناس بفضل تكنولوجيا انفلتت من قبضة فتاوى التكفير. تصهل حنجرتك لتعانق تمردها ضد هذا الفحيح، هذا الطنين الذبابي. تغمر جسدك رعشـة العشـق، فيمتـد معك الأريـج و يحتفـي بـك النـدى. تتحـد بتربـة حارتـك الحميمـة. تـرفض مـوت الوجـوه. و يرسـم صـوتك الهـادر فـي الفضـاء الواسـع علامة التحدي. و تقول لقطيع الذئاب الماكرة: لا لتشويه الوجوه تبريرا لقتل الأجساد و انتهاكها.

- 10 -

في سنة شاعت فيها المهانة و استفحل الاستبداد و تفشى البغاء و البؤس. في بلد كان يلثم شفة الموت بقلب يشرف على السكوت، قدمت السماء استقالتها. لكن الممسكين بالزمام رفضوها بسبب الجفاف ... الجراد ... ميزانية مجلس الشورى... و حيض زوجة الفقيه و أسباب أخرى لم يصرح بها حفاظا على جلد الزمام. في هذا العام الذي بات يعرف بعام الاستقالة اكتشفت أن وجهك لم يسقط منك سهوا في الطريق بل أنه سرق في غفلة منك.

تنمو المقاهي كالفطر كل صباح. و تولد دور جديدة للعهارة كل مساء. و تنتشر وجوه لا وجوه لها و عيون لا عيون لها تلتصق بأجساد الناس كالقراد. و مخالب كالسيوف المعقوفة تتلو خطبا سوداء ثم تنغرس في القلوب مفتشة عن لون الدماء التي تضخها.

يتوضأ بنور الشمس . يحمل غضبه بين يديه و جمرا متوقدا في قلبه. الشيح من جانب و من ذاك السرخس الأخضر. ذاك موكبه. و كأنها الجنازة يسير بصمت. و سرا يتلو قصائد من غضب تنفثه شعاب حارته كاللهب. كان متلفعا بلباس خاطته أنامل عانت من البتر أزمنة طويلة، غير أنها نبتت هذه السنة أكثر حذقا و مهارة. و قد كان يمشـــي و الموت يمشي بين يديه صاغرا نحو مدينة نائمة، غارقة في أحلامها الصغيرة، يصاعد من سباتها دخان كثيف و أبخرة خانقة.

الطفل الحلزون

قال الطفل لأمه :" ماما أريد أن أكون حلزونا."

ارتسمت الدهشة على محيا الأم و قالت مستنكرة:" ماذا دهاك هذا الصباح؟ ألــم تنم جيدا؟"

- بلى يا ماما، لقد نمت جيدا و رأيت أحلاما جميلة.

شاءت الأم أن تسايره فقالت:

- لماذا تريد أن تكون حلزونا يا ولدي؟

أجاب و حلم مزهرأخضر يملأ عينيه:

- لأعيش في الغابة و ألعب و ألهو و حين أتعب أستريح في داري التي أحملها على ظهري.

قالت الأم:

- ألا يعجبك أن تلعب بما اشتريناه لك من لعب؟ أو لا يروقك أن تلعب مع أقرانك قرب المنزل؟

رد الطفل:

- لا يا ماما، لقد صارت هذه اللعب تثير في نفسي الملل، و صار أسفلت الشارع يقرفني، أريد أن ألعب في الغابة.

قالت الأم و ابتسامة تغالبها:

- ألم تقرأ يا ولدي قصة فاطمة التي أرادت أن تكون قطة؟

- بلى، ولكن فاطمة أخطأت، لأنها أنفت أن تأكل الطعام تحت الطاولة.

سألته الأم و قد راقها الحديث:" هل فكرت في الدار التي ستحملها على ظهرك؟".

- نعم يا ماما، سأصنعها من الكرتون و أطويها ثم أحملها على ظهري و أذهب إلى الغابة.

قالت الأم: " و لكن الحلزون يزحف و أنت تمشي على رجليك.

- لا يهم، سأكون الحلزون الوحيد الذي لا يزحف.
- ألا يحزنك أن تتركنا و تذهب وحدك إلى الغابة حلزونا يحمل كرتونة على ظهره.
- و لكني أريد أن تكونا مثلي حلزونين كبيرين نعيش جميعنا في الغابة.
- ألا تخشى يا ولدي أن تدوسك الأقدام إذا صرت حلزونا، أو تجد نفسك في إحدى القدور التي تغلي؟
- سأذهب إلى غابة لا يعيش بها بشر.

أعيت الأم حجج طفلها فطلبت منه أن يكف عن التفكير في هذا المشروع الغريب. عندئذ انزوى الطفل في مكان قصي من الدار. أخذ ورقة بيضاء و أقلاما ملونة، ثم رسم غابة عذراء لم تطأها أبدا قدم بشرية. و دون أن يشعر به أحد، تسلل خلسة داخل الورقة بين أشجار الغابة الخالية من البشر.

ثمن الشهرة

زعموا أن ديكا كان يعيش في غابة كثيفة الأشجار وافرة العشب. تألفها حيوانات كثيرة العدد متنوعة الأجناس. و كان هذا الديك بريشه المزركش الرائع أشبه بتحفة اختلست من الجنة.

و كان بصوته الرائع الذي يرفعه كل فجر، يخلب أفئدة الحيوانات الراقدة، فتنهض مستعدة لنهار مليء بالأشغال. و صار بذلك الساعة الوحيدة التي تضبط عليها كائنات الغابة وقتها.

و لهذا اكتسب تقدير جميع الحيوانات و ودها.

و كان من عادة الديك أن يتربع على فرع من فروع شجرة الخروب منتظرا أن تمر قافلة الحيوانات أمامه صباح كل يوم، لتحييه تحية الاعتراف بالجميل. فكانت الحمير و البغال تعرب له عن الشكر الصادق لأنه أيقظها من سبات عميق و أنقذها من لفحات السياط القاسية. و كانت النحل تعبر له عن امتنانها لأنه ساعدها على النهوض الباكر من أجل العمل الكثير و الزهر الوفير. أما الخفافيش فلم تكن تنام إلاّ على أنغام صوته العذبة لطول سهرها. بينما كان من عادة بعض الثعالب أن تقول له متخابثة: إننا نستمتع بتأمل ريشك الجميل و نطرب لصوتك الساحر، و ندعو الله أن يحقق حلمنا اللذيذ.

و على هذا المنوال كانت تمر الحيوانات الأخرى و هي في طريقها نحو مجالاتها الفسيحة.و كان الديك من فوق شجرة الخروب يرد التحية بأحسن منها و نفسه مغمورة بالفرح، و أحيانا تغرورق عيناه بالدموع تأثرا بهذه التحيات الصادقة.

ذاعت شهرة الديك في الغابة كلها و تعدتها إلى الغابات المجاورة. و لما بلغ الأسد خبر شهرته، فكر في أن يجعله في خدمته، فأرسل إليه ابن آوى أكثر حاشيته مكرا و دهاء.

اتجه ابن أوى نحو شجرة الخروب. حيى الديك ثم قال:

- إن ملكنا الأسد المعظم، قاهر الأسود و مذل الحيوانات يبلغك رضاه و رغبته في أن يجعلك من مقربيه.

رد عليه الديك قائلا:

- إن للأسد حاشية كثيرة العدد، شديدة البطش، فبماذا سينفعه طائر مثلي لا حول له و لا قوة؟

عبس ابن آوى و كشر، فبانت آثار من الدم ظلت عالقة بأنيابه، ثم قال:

- كيف تبخس من قيمة نفسك و شهرتك قد اخترقت أوسع الآفاق؟ و لا أظنك مغفلا لتفلت منك هذه الفرصة. فما من وحش أو طير إلاّ و يطمح إلى مصاحبة الأسد و معانقة الجاه و السلطان، أتحب أن تظل على هذه الحال ضعيفا فقيرا، ترضى بالفتات و تجرؤ عليك حثالة الحيوانات؟

فأجابه الديك:

- لم أشك إلى الآن من شيء، و أحمد الله على حالي.

قال ابن آوى:

- إني لم أر القنوعين إلاّ ناقصي عقول، و الغر من يرفض طلبا للسلطان.

خيل للديك أن غصن الخروب صار شفير هاوية. قال و الخوف يكسر لفظه:

- اترك لي مهلة للتفكير في هذا الأمر الخطير.

قال ابن أوى:

- فكر برزانة و لا تنس أن للشهرة ثمنا باهظا.

احتار الديك في اتخاذ القرار الأنسب لهذا الموقف. فالأسد لا يرد له طلب، و لا ترفض له دعوة. فإذا غضب لا أحد يردع بطشه أو يرفع ظلمه. و هو يخشى، إن لم يستجب لهذا المطلب، أن يفتك الأسد ببني جنسه. كما يخشى أن يفقد أعز أصدقائه من الحيوانات، و يحرم من دفء الخم و مودة الدجاجات. و تيقن أن الاستشارة قبل اتخاذ أي قرار ضرورة لا مهرب منها.

سأل دجاجة من دجاجاته:

- لقد طلب مني الأسد أن أكون خادما في عرينه، فماذا ترين؟

أجابته الدجاجة مستنكرة:

- أيعجبك أن تعيش أبدا في هذا الخم القذر الذي أخشى أن يسقط على رؤوسنا في كل لحظة؟ أيرضيك أن نتغذى بالفضلات بدل الحب اللذيذ. ألا يغريك أن يكون لنا خم يفوق جميع الأوكار روعة، خم مصنوع من خشب الأبنوس المصقول و مزين بالشبابيك المذهبة. أريد أن تكون مائدتنا زاخرة بالأطعمة الفاخرة و سريرنا مفروشا بالحرير و الديباج. و لا يكون لنا هذا إلاّ إذا خدمت الأسد و صحبته، فلا تتردد في تلبية الطلب و أسرع إليه قبل أن يعدل عن رأيه فيك.

غمغم الديك و سار نحو الحمار. و قبل أن يفتح الديك منقاره بالسؤال صاح الحمار:

- احذر من ثلاثة: النار و البحر و الأسد.

عاد إلى شجرة الخروب فوجد الثعلب غافيا في ظلها. نبهه ثم سأله:

- ماذا ترى أيها الثعلب في أمري؟

قال الثعلب:

- إنك هنا لا تجني من صياحك الجميل أي فائدة. و أي نفع سيأتيك من نهيق هذا الحمار أو هذر ذلك الخفاش أو صداقة تلك النحلة؟ إنك محظوظ أيها الديك، فلا تترك هذه الفرصة لغيرك و انتهزها دونما تردد، و إذا خفت على دجاجاتك أثناء غيابك فأنا مستعد لحراستهن و حمايتهن من كل خطر قد يحدق بهن.

استنصح الديك الصقر في هذا الشأن، فإذا هذا الطير الكاسر يجيبه من عليائه شامخا بمنقاره الرهيب:

- لي السماء و لكم البر.

ثم استأنف تحليقه في السماء العالية.

رجــع ابن آوى بعد يومين إلى الديك و حسم الأمر قائلا:

- جئتك اليوم لترافقني إلى عرين الأسد، فاستعد للرحيل و لا تبطئ، فلي أشغال و التزامات أخرى.

حرك الديك منقاره لينطق لكن ابن آوى أسكته بحركة من أحد أطرافه:

- لا داعي للكلام و إضاعة الوقت.

سار ابن آوى والديك يتبعه حزينا، يلوح من فينة لأخرى بأحد جناحيه جهة الخم. ثم ألقى نظرة أخيرة مليئة بالحسرة إلى شجرة الخروب التي صارت تبتعد شيئا فشيئا حتى تلاشت بين كثافة الأشجار.

عندما وصلا إلى العرين كان الأسد منشغلا في اجتماع مع جماعة من الأسود. و بكلمات معدودة عين ابن آوى للديك شجرة جرداء قرب عتبة العرين الأسدي و قال له:

- هذا مقرك الجديد و منه سترسل صياحك، و إياك أن تصيح عند الفجر كما ألفت أن تفعل من قبل. من الآن فصاعدا ستصيح عند الظهر، فالأسد لا ينام إلاّ متأخرا و لا يستيقظ إلاّ متأخرا.

عز على الديك أن يغير من طبعه. فمنذ أن كان كتكوتا أزغب و هو ينهض في غبش الصباح ليقلد أباه في الصياح، بكل ما أوتي من طراوة الصوت وكان يبالغ في ذلك حتى يصيبه السعال الديكي. و حين أضحى ديكا يافعا صار يتفنن في الصياح. و كان يشعر دائما في قرارة نفسه أنه فنان موهوب و ليس منبها أو نفارا فحسب.

لكنه في هذا العرين أصبح يؤدي ما كان يبدع فيه بملل قاتل. و في أيام الصيف الجهنمية تتحول شجرته إلى مشواة و أشعة الشمس إلى سهام نارية. و لما تستسلم الحيوانات إلى قيلولتها تحت ظلال الأشجار أو في رطوبة الكهوف، يضطر هو إلى أن يرفع صوته بكل ما يملك من نفس ليوقظ الأسد من سباته الثقيل.

و ظل على هذه الحال لا يبرح شجرته إلاّ حين يتصدق عليه ببعض الحبات من القمح، حتى أن كثيرا من حاشية الأسد كانت تعتقد أنه نبت مع تلك الشجرة.

بعيدا عن خمه الدافئ، عن شجرة الخروب، عن حميمية الجلسات مع الأصدقاء كان الديك يذوي كما تذوي النبتة العطشى. و أخذ صوته يصدأ كما تصدأ صفائح الحديد المهملة. و صار صوته خافتا لا يكاد يسمع.

و اتفق أن الأسد كان في حرب مع جماعة من الوحوش الثائرة ، و في لحظة من لحظات القلق على مصير سلطانه انتبه إلى وجود الديك الذي صار بلا نفع، فكشر و زأر و أمر بعض زبانيته أن يأتوا به. جرجروا الديك المسكين

ودفعوه بين يديه. مدت الحيوانات الحاضرة أخطامها متطلعة إلى ما سيقع للديك.

قال الأسد:

- أتدرون ما أنا فاعل بهذا الديك الذي أصبح عبئا على تلك الشجرة؟

فردت حاشيته كالجوقة:

- و ماذا ستفعل به يا مولانا؟

- سألعب به لعبة المستقبل. سأنتف كل ريشه لأعرف مصير هذه الحرب، الهزيمة أم النصر.

انتزع ريشة من ريش الديك الجميل ثم قال: سأنهزم في هذه الحرب. ثم انتزع ثانية و قال: سأنتصر في هذه الحرب. و استمر في النتف و التخمين حتى أتى على الريش كله. و صادفت الريشة الأخيرة حكم الهزيمة. استشأم الأسد بالديك المنتوف، فالتهبت عيناه بالشرر و تطايرت من خطمه رغوة صفراء، فأنشب مخالبه في جسم الديك المرتعد، ثم رمى به خارج العرين بكل ما أوتي من قوة. فتدحرج الديك و تدحرج ... حتى شجرة الخروب حيث لفظ أنفاسه الأخيرة.

ديـــن

عند الفجر أيقظني فجأة طرق شديد على الباب.

فتحت الباب و أنا بين النوم و اليقظة، فإذا برجل فارع الطول، بارز العضلات، غائم الملامح يصرخ في وجهي:" لماذا لا تؤدي ما عليك من الدين؟".

فأجبته و أنا لا أكاد أخفي انذهالي:" أي دين؟".

فقال: " ألا تذكر أني أقرضتك منذ عهد بعيد، قرضا كبيرا لا يمكن أن ينسى؟".

و بينما كنت أحاول أن أفك لغز هذا الموقف، و أتخلص مما سببه لي من إحراج، وجدت نفسي مطوقا بجماعة من الناس فيها الشيوخ و النساء و الكهول و الشبان و الأطفال يصرخون جميعهم في وجهي:" ألا تخجل من تملصك من دين نحن نؤديه منذ سالف العهود؟".

بحثت عن الرجل ذي العضلات البارزة و الملامح الغائمة، فلم أجد غير الجماعة تطالبني بأداء ما علي من الدين.

لحظـــة تاريخية

كانت المدرجات غاصة بالجمهور. و كانت المقاعد الأمامية مزهوة بحضور شخصيات معروفة في هـذا البلد.

و كـان هـو مـن وراء المنبـر يرتـب أوراقـه، و يسـوي جهـاز الميكروفـون، و يستعد لإلقاء خطبته التاريخية حول الأمر الجلل الذي ألـــم بالبلد.

كـان الجمهور الـذي تغص بـه المـدرجات ينتظـر دخـول الفـريقين إلـى ميـدان اللعب.

و كان هو خلف المنبر ينتظر مجيء الجمهور إلى القاعة.

هواء العالم

أحس بالاختناق. تمنى لو كان يملك كل هواء العالم ليملأ به رئتيه.
حققت أمنيته قصة قصيرة جدا، لم يكن يعلم أنها تطوي كل ذلك الهواء. فعب منه ما يشاء بغير حساب، لكنه انفجر إلى أشلاء متناثرة غاية في الصغر.

و هذا طبعا...

كان المثقف المعتقل ينتظر أن يطلق سراحه، ليكتب عن تجربته في السجن.

و كان الموظف ينتظر أن يتقاعد، لينشر مجموعة من الخواطر يصفي فيها الحساب مع رؤسائه.

و كان الطالب ينتظر أن يكمل دراسته، ليؤلف رسالة عن طرفة بن العبد.

و كان الشاعر الذي أنهكته العزلة، ينتظر أن يلقى المرأة الملهمة ليؤلف ديوانه الثاني.

و كان الزوج ينتظر أن ينهي إجراءات الطلاق، ليكتب عن المرأة المثالية.

و كان الزعيم السياسي ينتظر أن يموت، لتتم الكتابة عن سيرته العظيمة.

و هذا كله طبعا، يفسر كثرة الكتب و المجلات في المكتبات و الأكشاك.

نبـــوة

أراد مخلوق روائي أن يبرهن على وجود مؤلف الكتاب، فدعا الشخصيات الروائية الأخرى إلى استخدام النظر العقلي قائلا:

" تأملوا هذا الكون الروائي الرائع. انظروا إلى هذه الحروف المنسقة الطبع، و إلى هذه الفقرات ذات البنيان المتين، و إلى هذه الأفكار التي لا يمكن أن تخطر على أي كائن تنسجه الحروف. تأملوا جمال هذا الورق المصقول الذي يتسع لكل الكلمات...".

و لكن لا أحد من تلك المخلوقات الروائية، استطاع بنظره العقلي، أن يدرك الطاولة التي وضع عليها الكتاب.

شجـــاعة

نظر الطبيب الشاب - الذي عين حديثا - إلى طابور الرجال و النساء الذي اصطف أمامه، نظرة مثقلة بالتعب. و لما لاحظ نوعا من الفوضى يتسرب إلى الصفوف، نهض من كرسيه و دعاهم بكل أدب إلى التزام النظام قائلا: " ستستفيدون كلكم من الكشف، فقليلا من الصبر!".

و كان يرجو أن يتلقى منهم كل التفهم، إلا أن أصواتا صارت ترتفع من بينهم محتجة:" هذا غير معقول..لا يمكن.. هذه زبونية.. هذه محسوبية.. أين الديمقراطية.. هذا استهتار بحقوق الناس..."

في هذا الوقت بالذات، كانت صفوف من الناس تقف أمام مصلحة البطاقة الوطنية بكوميسارية المدينة. و بالرغم من الإهانات و الشتائم التي كان يمطرها عليهم موظفو المصلحة، كان الهدوء و الصمت مطبقا على صفوفهم.

خـــط

اشترى ورقا و قلما. و قال للقلم : اكتب.

قال القلم: ما أنا بكاتب.

قال: اكتب.

قال القلم: ما أنا بكاتب.

قال: اكتب.

قال القلم: ما أنا بكاتب، ألا ترى أني بحاجة إلى تثقيف.

قرار جليل

اعتبارا لما حبانا به تعالى، من رجاحة العقل و سداد الرأي. و انطلاقا مما أنيط بشخصنا من مهام جسيمة ومسؤوليات تعجز الجبال عن حملها. و سعيا منا لخدمة من يشملهم عطفنا و رعايتنا. قررنا إنشاء هيئة سامية، ستباشر أشغالها تحت إشرافنا المباشر. و سيكون من غاياتها النبيلة توفير الحصة الكافية من البركة لكل فرد من أمتنا العزيزة، في أفق سنة 2030 التي ستكون بعون الله تعالى، سنة اليمن و الخير و البركات.

سيرة أدبية

استهل حياته الأدبية بتأليف الرواية، عكس غيره من الأدباء الذين يتدربون في ورشة القصة القصيرة استعدادا لكتابة الرواية. و لكنه سرعان ما أصابه الملل من كثرة الوصف و تراكم التفاصيل. فصار يكتب القصة ذات النفس القصير. و لأنه قليل الصبر سريع الانفعال، لم يعد هذا الجنس الأدبي يلائمه، فصار يميل إلى نوع من القصة يشبه البرقية.

و لأنه ذو نظرة خاطفة و بديهة سريعة و تركيز شديد، لم يرضه هذا النوع الأخير أيضا. فصار يميل إلى السكوت.

ملكيــة

جاري يعتقد أنه أولـى منـي بهذا البلد، لمجرد أنـه يؤمن ببعض الأفكـار التـي تكتسي بخصوصية لا تكاد تخفى على أحد.

جاري يعتقد أنـه أولـى منـي بهذا البلد، لأنـه يرتـاد أمـاكن خاصـة لا أميل إلـى ارتيادها.

جاري يعتقد أنه أولى بهذا البلد، و بهذه الأرض بل و بالسماء كلها، لمجرد أنه يؤمن ببعض الأفكـار الإنشـائية التـي لا تحتمل التكذيب و لا التصـديق. فمـاذا أملك أنا؟

احتقـــار

طلـب الزبـون بضـع بيـرات و انتظـر. وضـع النـادل أربـع زجاجـات علـى الطاولة، و نظر إلى الزبون باحتقار.

فكر الزبون في سومة كراء الحانـة و مـا تجنيـه من ذلك مصلحة الضرائب. و فـي شـاحنات النقل و السـائقين الـذين يقودونهـا. و فـي الصـناديق و العمـال الذين يفرغونها، و في مجلس إدارة الشركة و المسـاهمين و الـوزير الـذي مـا يزال يشغل منصب المدير العام للشركة، و فـي السياحة و مقاصـف الفنـادق ، و فــي بــائعي " الزريعــة" و " كرابانصــا"، و فــي محــلات الشــواء، و فــي الحكومة. و لكن النادل كان ما يزال ينظر إلى الزبون باحتقار.

فهرس الكتاب

1) الفقيه الجديد
2) غـيــاب
3) الكلاب و الطريق الأسفلتي الطويل
4) بائعة الهوا
5) النار
6) تناظـر
7) عصـا مـوسى
8) مقايضــة
9) جبل العفاريت المتمردة
10) احذر موت هذا الوجه
11) الطفل الحلزون
12) ثمن الشهرة
13) ديــن
14) لحظة تاريخية
15) هواء العالم
16) و هذا طبعا...
17) نبــوة
18) شجــاعة
19) خــط
20) قرار جليل
21) سيرة أدبية
22) ملكيــة
23) احتقار